جامعة مؤتة

كلية الدراسات العليا

التقديم والتأخير في سورة الإسراء

(دراسة في ضوء علم المعاني)

إعداد الطالب

إحسان عبدالله محمد الجبوري

إشراف

الدكتورة غدير الشمايلة

رسالة مقدمة إلى كلية الدراسات العليا

استكمالاً لمتطلبات الحصول على درجة الماجستير

في اللغة العربية وآدابها

جامعة مؤتة، 2016/2015

الآراء الواردة في الرسالة الجامعية لا تُعبر

بالضرورةِ عن وجهة نظر جامعة مؤتة

بسم الله الرحمن الرحيم

جامعة مؤتة
كلية الدراسات العليا

MUTAH UNIVERSITY
College of Graduate Studies

نموذج رقم (١٤)

قرار إجازة رسالة جامعية

تقرر إجازة الرسالة المقدمة من الطالب إحسان عبدالله محمد الموسومة بـ:

التقديم والتاخير في سورة الاسراء (دراسة في ضوء علم المعاني)

استكمالاً لمتطلبات الحصول على درجة الماجستير في **اللغة العربية**.

القسم: اللغة العربية.

	التوقيع	التاريخ	
د.غدير سالم الشمايلة		٢٠١٥/١٢/١	مشرفاً ورئيسا
ا.د.سامح عبدالعزيز الرواشدة		٢٠١٥/١٢/١	عضواً
د. عادل سلمان البقاعين		٢٠١٥/١٢/١	عضواً
د.سلامه هليل الغريب		٢٠١٥/١٢/١	عضواً

عميد الدراسات العليا
د. محمد المحاسنة

MUTAH-KARAK-JORDAN
Postal Code: 61710
TEL :03/2372380-99
Ext. 5328-5330
FAX:03/ 2375694
e-mail: dgs@mutah.edu.jo sedgs@mutah.edu.jo
http://www.mutah.edu.jo/gradest/derasat.htm

مؤته – الكرك – الاردن
الرمز البريدي :٦١٧١٠
تلفون :٠٣/٢٣٧٢٣٨٠-٩٩
فرعي 5328-5330
فاكس ٠٣/٢ 375694
البريد الالكتروني
الصفحة الالكترونية

الإهداء

إلى الذي مشى على الأشواك حافياً، وتجرع مرارة العيش؛ ليجني لنا فاكهة الحياة... أبي الغالي، رحمه الله، وأسكنه فسيح جناته...

إلى التي أرضعتني من لبن حنانها، وسهرت الليالي؛ لأغفو في جنة أحضانها؛ لأصبح رجلاً، أمي الحبيبة، أطال الله بقاءها في طاعته، وألبسها ثوب الصحة والصبر، ومتعني ببرها...

إلى إخوتي الذين منحوني الصبر والعزيمة والإخلاص، أبو دلال، وأبو إيمان، وأبو عدنان، عرفاناً وتقديراً...

إلى أخواتي، محبة واحتراماً...

إلى التي شاركتني همومي ومعاناة الدراسة والغربة وتحملت عناء السفر... أم حمزة...

إلى فلذة كبدي الذي يمشي على الأرض وفيه أرى مستقبلي، وبه يكبر طموحي... ولدي الغالي حمزة...

إلى الأقارب والأصدقاء وكل من ساندني في إتمام هذا البحث...

إليهم جميعاً أهدي هذا الجهد المتواضع

إحسان عبد الله محمد الجبوري

الشكر والتقدير

بعد أن مَنَّ الله عليَّ بإنجاز هذه الرسالة، فإني أتوجه إليه ـ سبحانه وتعالى ـ أولاً، وآخراً، بالشكر والامتنان على فضله وكرمه وعطائه الذي غمرني به، فوفقني إلى ما أنا فيه، امتثالا لقوله تعالى: (لئن شكرتم لأزيدنكم).

ثم أتقدم بخالص الشكر والتقدير إلى أستاذتي ومعلمتي الدكتورة غدير الشمايلة، المشرفة على هذه الرسالة على ما أفادتني به من ملاحظات وإضافات كان لها الأثر الكبير في إنجاز هذه الرسالة.

كما وأتقدم بالشكر الجزيل إلى أعضاء لجنة المناقشة، الأستاذ الدكتور سامح الرواشدة، والدكتور عادل البقاعين، والدكتور سلامة الغريب، على تفضلهم بقبول مناقشة هذه الرسالة وعلى ما سيقدمونه من ملاحظات قيّمة تغني هذا العمل.

وأتقدم بالشكر الجزيل لجامعة مؤتة، ومكتبتها، وأساتذتي في قسم اللغة العربية، ولعمادة كلية الآداب.

أتقدم بجزيل الشكر والعرفان للأخ أبي خطاب عمر الجبوري، لبذله الوقت والجهد وهو يزودني ببعض مصادر هذه الدراسة ومراجعها.

إحسان عبد الله محمد الجبوري

فهرست المحتويات

الموضوع	الصفحة
الإهداء	أ
الشكر والتقدير	ب
قائمة المحتويات	ج
الملخص بالعربية	ز
الملخص بالإنجليزية	ح
المقدمة	1
التمهيد	6
الباب الأول: التقديم والتأخير عند العلماء القدامى والمحدثين	10
الفصل الأول: التقديم والتأخير عند البلاغيين القدامى	10
جهود النحويين في دراسة التقديم والتأخير	16
النحويون القدامى	16
التقديم والتأخير في دراسات المحدثين	18
الفصل الثاني: الرتبة البلاغية	20
الرتبة البلاغية (الغرض البلاغي)	20
الفصل الثالث: الفاصلة القرآنية بين البلاغة والنحو	28
القسم الأول: ما يختص بالجملة الاسمية	29
القسم الثاني: ما يختص بالجملة الفعلية	31
القسم الثالث: ما يختص بالمكملات	32
تقديم المفعول المطلق	33
تقديم الحال على عاملها	33
القسم الرابع: ما يختص بالفصل النحوي	34
الباب الثاني: من جماليات التقديم والتأخير في القرآن الكريم	38
التقديم لغرض التناسب المعنوي	48

الموضوع	الصفحة
التقديم والتأخير لغاية إظهار مراتب الحب والإيثار	50
التقديم للفضل والشرف	52
السبق بالطبع والذات	54
السبق في الإيجاد	55
السبق بالمكان	56
الباب الثالث: سورة الإسراء	60
بين يدي سورة الإسراء	66
سورة الإسراء ومسمياتها	70
الوحد الموضوعية في السورة	71
التقديم والتأخير في سورة الإسراء	76
التقديم والتأخير في أشباه الجمل	77
أغراض التقديم والتأخير في أشباه الجمل	81
التخصيص	81
التخصيص للأفضلية	81
التخصيص للاهتمام	82
التخصيص للتعظيم	84
التخصيص للرعاية والفضل	85
التخصيص للتحذير	86
التحقير	86
التخصيص للتوعد والتهديد	87
التخصيص للتحدي	88
أغراض بلاغية أخرى أفادها التقديم والتأخير	89
مراعاة السبق الزماني	89
مراعاة الترتيب التصاعدي	90
التدرج في ذكر حركة الإنسان	91

الموضوع	الصفحة
القسم والتأكيد	92
المدح والإطراء	93
القصر (الحصر)	93
الجملة الفعلية	94
الأغراض البلاغية في الجملة الفعلية	100
الإيحاء بمعنى الإيجابية	101
التدرج والترتيب	103
التدرج من الأضيق إلى الأوسع	106
التدرج من الأقل إلى الأكثر	106
التعظيم	106
المديح	107
مراعاة الرتبة	107
الأسلوب الحكيم	109
التفضل	110
التحذير	110
العلة والمعلول	112
التعميم ثم التخصيص	112
التقديم والتأخير في الأسماء	112
تقديم وتأخير الأسماء في مطلع السورة	114
أغراض التقديم والتأخير من خلال الأسماء	115
مراعاة السبق	115
مراعاة السببية	117
مراعاة التدرج من الأدنى إلى الأعلى	118
مراعاة التدرج من الأعلى إلى الأدنى	119
التدرج من الأقوى إلى الأضعف	119

الموضوع	الصفحة
التدرج من الأضعف إلى الأقوى	121
التقديم للشرف	121
التقديم حسب الرتبة	126
تقديم مصلحة الإنسان الضرورية على ما سواها	126
مراعاة القرب المكاني	127
التعظيم	128
التخصيص	128
التحدي وإظهار النِّدية	129
الخاتمة	131
المصادر والمراجع	135

الملخص

التقديم والتأخير في سورة الإسراء

(دراسة في ضوء علم المعاني)

إحسان عبدالله محمد الجبوري

جامعة مؤتة 2015

يهدف هذا البحث إلى دراسة ظاهرة بلاغية هامة في علم المعاني، وهي ظاهرة (التقديم والتأخير)، وذلك من خلال سورة الإسراء (بني إسرائيل) وذلك لتبيين غايات هذا التقديم والتأخير، البلاغية منها والأخلاقية؛ لما في ذلك من مردود تربوي وأخلاقي على المجتمع، فتقديم الألفاظ وتأخيرها داخل الآية لا يكون إلا لعبرة ومقصد، لابد من تأمله، كتقديم اللفظ للأهمية، أو للفت النظر لرتبته أو للتحذير مما يليه، أو التشويق وغيره.

ووقع الاختيار على سورة (الإسراء)؛ لأن لها وقعاً خطيراً فيما تمر به من أحداث في زمننا الحاضر. وما يدور من صراع في فلسطين حول المسجد الأقصى، فقد عالجت السورة هذا الأمر في بدايتها، وبثّت في بعض المعطيات التي نعيشها.

وقد اعتمد الباحث في دراسة هذا الموضوع المنهج التحليلي البياني، حيث كان يعمد إلى الآيات محللاً عناصرها في ضوء علم البيان (البلاغة) واستخلاص النتائج وذلك بالاستعانة بجهود الدارسين البلاغيين القدامى والمحدثين.

Abstract

Precedence and Delay in Al-Isra'a Surah

(Children of Israel's chapter)

By

Ihsan Abdullah Mohammed Aljubury

Mu'tah University 2015

This research aims to study rhetorical phenomenon in semantics ; it is precedence and Delay through Al-Isra'a Surah to show rhetorical and moral purposes of this phenomenon as there is educational and moral impression in society.

The precedence of a word or delaying it within a verse is, but for a lesson or for a good should be looked attentively; for example; the precedence a word for its importance, to show attention, for warning from a word a phrase or for excitement, etc ...

The researcher has chosen this Surah because it has serious influence over the events that we are passing through nowadays and what is happening now around Al-Aqsa Mosque in Palestine so that this Surah deals with all of these events stressing on facts that are in a life we live .

In this study the researcher depends on rhetorical analytic manner; undertaking analyzing verse's aspects in this light of rhetoric and concluding results by asking for the help of efforts of old and modernize rhetorical scholars.

المقدمة:

الحمد لله ربّ العالمين، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين وبعد:

فإنَّ بلاغة التقديم والتأخير في كتاب الله تستحق كغيرها من البلاغات القرآنية وقفةً طويلة لتأمل أبعادها وسبر أغوارها، وتذوق جمالياتها، فما من لفظ تقدم في كتاب الله على غيره أو تأخر، إلا لغاية وحكمة وفائدة، وقد أمرنا الله سبحانّه وتعالى بتدبر آياته فقال: ﴿أَفَلاَ يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ اخْتِلاَفًا كَثِيرًا﴾[1].

وقد تبين للدارسين القدامى والمحدثين أنّ الغايات البلاغية وراء ترتيب الكلمات القرآنية –تقديمها وتأخيرها– غايات عظيمة، تحمل رسائل إنسانية وتربوية لا حصر لها، كما تحمل أحكاماً شرعية تغيّر كثيراً من مجريات الأحكام والقضايا. فلا يقتصر غرض التقديم على الأهمية، أو الاختصاص كما دأب كثير من الدارسين، فالأمر أخطر من ذلك بكثير، وأدعى إلى مزيد من الدراسة والتأمل.

ولما كان كتاب الله لا تنقضي عجائبه، ولا تنتهي حكمه وإعجازه ارتأيت أن آخذ على عاتقي خدمة إحدى السور الكريمة فيه، مما لم تتناوله أقلام الدارسين في مجال التقديم والتأخير، فأعكف على دراستها، ومحاولة تبين بعض مواطن الإعجاز البلاغي فيها، طلباً للأجر قبل المنفعة الدنيوية –والله شاهد عليّ– لقوله عليه السلام مبيناً أجر قارئ القرآن: "لا أقول: ألم حرف بل ألف حرف ولام حرف وميم حرف"رواه الترمذي وقال حديث حسن[2].

---

[1] النساء (82).

[2] المنذري، عبد العظيم عبد القوي بن عبدالله أبو محمد زكي الدين المصري، صحيح الترغيب والترهيب، رقم الحديث: (1416) صححه الألباني.

وقد وقع اختياري على سورة (الإسراء) لعلمي أنّها لم تُطرق من هذا الباب، وأنّ دراسة هذه الظاهرة قد وقعت على سور أخرى، لم تطل هذه السورة في التقديم والتأخير إلا إشارات عابرة من الحديث العام عن هذه الظاهرة، فوقع اختياري عليها؛ لاهتمامي بهذا الموضوع، ولموقع السورة في نفسي؛ لما أحمله لها من مهابة وتجلة، وبذلك أكون قد أدليت بدلوي في خدمة كتاب الله ونشر معانيه.

وقد اعتمدت في دراستي على عدد من المصادر والمراجع على رأسها القرآن الكريم –نفسه– استخرج منه الآيات التي فيها تقديماً وتأخيراً، فأعرضها على كتب التفسير؛ لأفهم معاني المفردات والتراكيب اللغوية، وعلى رأس هذه الكتب: (الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل) للزمخشري؛ كونه عني بالتفسير البلاغي للقرآن الكريم، وتفسير القرطبي (الجامع لأحكام القرآن)؛ لأنّه من التفاسير الشافية لآيات القرآن؛ لما أورده من آراء المفسرين الذين سبقوه والذين عاصروه وآراء النحويين والبلاغيين واللغويين؛ مما يوفّر على الدارس جهداً في جمع الآراء والتفاسير.

ومن التفاسير المعاصرة وقع اختياري على تفسير سيد قطب (في ظلال القرآن) لما فيه من دراسات جمالية في مجال الصورة القرآنية، ونظرة معاصرة تعكس روح العصر الذي نعيشه ومجال التأمل في آيات الله، وتفسير الصابوني؛ لما لهذا العالم من بصمات خيّرة في مجال التفسير.

كما اعتمدت من المعاجم حين كان يحزبني أمر المفردات القرآنية أو ألفاظ الدارسين القدامى (لسان العرب) لابن منظور؛ لأنّه من المعاجم الشافية في مجال الاستدلال على معاني المفردات، القاموس المحيط للفيروز أبادي.

ومن كتب البلاغة حاولت أن أتتبع المصادر البلاغية القديمة وفقاً لتسلسلها الزمني، مستطلعاً آراء البلاغيين القدامى في ظاهرة التقديم والتأخير، سواء حين بدأ

ظهور هذه الآراء على صورة إشارات عابرة كرأي ابن قتيبة (ت273) في (أدب الكاتب) وابن المدبر ت(279هـ) في (الرسالة العذراء) وقدامه بن جعفر (ت377هـ) في (نقد الشعر) وغيرهم مروراً بمن توسعوا في الحديث عن التقديم والتأخير وبيان أقسامه من مثل عبد القاهر الجرجاني (ت471هـ) في دلائل الإعجاز) وابن الأثير (ت637هـ) في (المثل السائر) ومن تلاهما في الدراسة كالقزويني في (الإيضاح)، والسكاكي (ت 626هـ) في (المفتاح) ومن توسط هؤلاء ممن عرضوا بالتفصيل لأغراض التقديم والتأخير كالزجاجي (ت 337هـ) في (الأمالي) وتوقفت عند من أسهبوا في عرض الأغراض البلاغية للتقديم والتأخير، كالزركشي (ت794) في (البرهان في علوم القرآن) الذي توّج دراسات السابقين بإحصاء (خمسة وعشرين) غرضاً من أغراض التقديم والتأخير. كذلك العلوي (ت705هـ) في (الطراز) وغيرهم.

وفي مجال الدراسات الحديثة أفدت من المؤلفات التي عرض أصحابها لهذه الظاهرة البلاغية، واستنرت بتحليلاتهم، ومعالجتهم للشواهد القرآنية التي تمثل هذه الظاهرة، من مثل كتاب (التقديم والتأخير في القرآن الكريم) لعلي أبو القاسم، (التعبير القرآني) لفاضل السامرائي، و(جماليات التعبير في القرآن الكريم) لسامح الرواشدة، و(البناء اللغوي في الفواصل القرآنية) لعلي العنبكي، و(قضايا قرآنية) لفضل حسن عباس، وغيرها.

وقد قسمت رسالتي إلى ثلاثة أبواب وثلاثة فصول رئيسية هي:

الباب الأول ويتكون من ثلاثة فصول هي:

التقديم والتأخير عند العلماء القدامى والمحدثين

1. الفصل الأول: حول التقديم والتأخير في دراسات البلاغيين القدامى والنحويين.

2. الفصل الثاني: حول الرتبة البلاغية وصلتها بالتقديم والتأخير، عالجت خلاله الغرض البلاغي الكامن وراء ترتيب الألفاظ القرآنية، على النحو الذي ترد عليه؛ وذلك بالاستعانة بآراء الدارسين القدامى منهم والمحدثين.
3. الفصل الثالث: حول الفاصلة القرآنية وعلاقتها بالتقديم والتأخير؛ وذلك لذهاب كثير من الدراسين –وللأسف الشديد– إلى أن الفاصلة القرآنية في كثير من الأحيان تهدف إلى تحقيق السجع والإيقاع؛ ولذلك تعمد الآيات الكريمة إلى التقديم والتأخير–وحاشا لله– أن يكون كلام الله قد نزل على الناس لغايات الإيقاع والموسيقى. وإنّما يأتي الإيقاع عفوياً –كما أرى– غير مقصود لذاته. وقد اقتضى هذا الفصل أن أعرض عرضاً سريعاً لجهود النحويين القدامى وإشاراتهم إلى هذا الموضوع من مثل سيبويه والمبرّد وابن جنّي.

الباب الثاني: وكان حول جماليات التقديم والتأخير في القرآن الكريم وذلك بعد تطواف عام في القرآن الكريم، والوقوف على بعض المواطن الجميلة، التي لفتت نظر الدارسين، فذكرتها ورتبتها حسب أغراضها.

الباب الثالث: دراسة بيانية تطبيقية لسورة الإسراء في موضوع التقديم والتأخير أفدت فيها من البابين الأول والثاني في التعرف إلى مواطن التقديم والتأخير بالاعتماد على نفسي مع الاستنارة بما يقع بين يدي من آراء تناولت الآيات في سورة الإسراء في مجالي البلاغة والتفسير.

وكان منهجي في هذه الدراسة استقرائياً في بابه الأول، إذ عمدت إلى قراءة واسعة في مجال آراء الدارسين القدامى في ظاهرة التقديم والتأخير، ورتبتها حسب تسلسلها الزمني وعقبت عليها كلما سمح المقام، ثم عمدت إلى المنهج التحليلي البياني حين شرعت في دراسة سورة الإسراء وطبقت من خلالها ما تعلمته في فصول البابين الأول والثاني.

وكنت أعمد إلى توثيق آراء الدارسين، ونقلها بنصها بين مزدوجين، ثم نقل اسم المصدر أو المرجع إلى الهوامش، بعد الإشارة إليها بأرقام محددة، وذكر تفاصيل الطبع والنشر وأرقام الأجزاء والصفحات، وإعادة كل ذلك في قائمة المصادر والمراجع مرتبة ترتيباً ألفاً بائياً؛ لأسهّل على القارئ عملية الرجوع إليها.

ولعل من أبرز المشكلات التي واجهتني في كتابه الرسالة، هي الاجتهاد الشخصي في فهم مواضع التقديم والتأخير في دراسة الآيات، حين لا يعرض لها أحد من الدارسين، فالمرء يخاف حين يكون مؤمناً بالله من الخوض في الآيات الكريمة بجرأة، قد تؤدي به إلى الخطأ أو التعدي على كتاب الله؛ لذلك احتجت وقتاً طويلاً لتدبر هذه الآيات، ومحاولة التوصل إلى الغرض البلاغي الكامن وراءها، فإن أصبت، فهذا فضل الله يؤتيه من يشاء، وإن أخطأت فلا حول ولا قوة إلا بالله.

التمهيد:

التقديم والتأخير هو: "مخالفة عناصر التركيب ترتيبها الأصلي في السياق، فيتقدم ما الأصل فيه أن يتأخر، ويتأخر ما الأصل فيه أن يتقدم وهذا معنى قول عبد القاهر الجرجاني (ت371هـ) في كتابه (دلائل الإعجاز): ثم تنظر فتجد سبب أن راقك ولطف عندك أن قدم فيه شيء وحوّل اللفظ من مكان إلى مكان"[1].

والحاكم للترتيب الأصلي بين عنصرين يختلف إذا كان الترتيب لازماً أو غير لازم فهو في الترتيب اللازم –الرتبة المحفوظة– حاكم صناعي نحوي، أما غير اللازم (الرتبة غير المحفوظة) فيكاد يكون شيئاً غير محدود، ولكن هناك أسباب عامة قد تفسر ذلك الترتيب.

ولتوضيح الكلام السابق فإنّ التركيب النحوي للجملة هو مناط الدراسة وموضع النظر، ومعلوم أنّ الجملة العربية تكون إمّا فعليةً وإمّا اسمية، فالجملة الفعلية يتقدم فيها الفعل على الفاعل، وهذا معنى –الرتبة المحفوظة– أي الترتيب الأصلي للكلام، فلا ضرورة للبحث فيه عن أغراض بلاغية أو مغازٍ للمنشئ يريد لفت المتلقي إليها.

بينما في الجملة الاسمية قد يستوي طرفا التركيب فيكونان معرفين معاً –المبتدأ والخبر– فيختلف في أيّهما يمكن أن تصدر به الجملة، وأيّهما يمكن أن يكون خبراً، وهنا يختلف النحاة عن البلاغيين في هذا الباب، فبينما يترك النحاة للمتكلم الخيار في أن يصدّر في الكلام أو يؤخر، ينظر البلاغيون في حال المخاطب ودوافعه الفكرية في اختيار ما ينبغي تقديمه وما ينبغي تأخيره، وهذا المقصود بـ (الرتبة المحفوظة) وعنها تنبثق أغراض البلاغة وجمالياتها، وهي أغراض جليلة لا حصر لها؛ لذلك عُد (التقديم

---

[1] الجرجاني، عبد القاهر، دلائل الإعجاز، تحقيق: محمد رضوان الداية، دار الفكر، دمشق، ط1، 2007م، ص85.

والتأخير) من أهم أبواب علم المعاني ومضماراً لمعرفة مقاصد الشارع في ترتيب الآيات الكريمة والألفاظ القرآنية، حيث تُسمى هذه الأغراض (بالرتبة المعنوية)؛ تمييزاً لها عن الرتبة النحوية أو (التقديم والتأخير المعنوي).

وينبغي قبل الدخول إلى أغراض التقديم والتأخير، وآراء البلاغيين القدامى والمحدثين فيه من التنبيه إلى قضية خطيرة في هذا الباب، وهي علاقة التقديم والتأخير بالفاصلة القرآنية، وما إن كان تحقيق السمع والإيقاع الصوتي غرضاً من أغراض التقديم والتأخير.

وقد أشار فضل حسن عباس إلى هذا الموضوع مورداً رأي دائرة المعارف البريطانية في الفواصل القرآنية، حيث جاء فيها:

"وكان القرآن يعطي للقارئ انطباعاً بأنّه مجرد إنشاء جاء بطريقة عشوائية، ويؤكد صحة ذلك طريقة ختم هذه الآيات بآيات مثل: (إنّ الله عليم) (إنّ الله حكيم) (إنّ الله يعلم ما لا تعلمون) وإنّ هذه الأخيرة لا علاقة لها مع ما قبلها، وأنّها وضعت فقط لتتميم السجع والقافية"[1].

وقد أبدى فضل حسن عباس –رحمه الله– أسفه حول هذا الموقف وهذا الافتراء والبعد عن النزاهة بقوله: "لكن الذي كنت لا أود أنا وأنت أيّها القارئ معاً، أن نجد مصدراً من مصادر المعرفة، طالما روّج له أصحابه، وأحاطوه بهالات فخمة من الإجلال والتبجيل، وسوّروه بأسوار البحث العلمي والنزاهة، وألبسوه لباس الحقيقة، بل عدوه حصناً من حصون المعرفة، أن نجد من وصفوه –أي القرآن الكريم– بهذه الصفات بعيداً عن ذلك كله، بل هو فوق ذلك ممعن في الافتراء، بعيد عن النزاهة في البحث منافٍ لقواعد العدل، وأسس المنطق، تلك هي دائرة المعارف البريطانية التي استدلت –كما عرفت– على أنّ القرآن مجرد إنشاء"[2].

---

[1] عباس، فضل حسن، قضايا قرآنية في الموسوعة البريطانية، دار البشير، عمّان، ط1، 1408هـ، 1988م، ص82.

[2] المرجع نفسه، ص81.

من هنا أخذ هذا البحث على عاتقه مهمة الدفاع عن آيات كتاب الله، وتنزيهه عن غايات الشعراء والسجاعين في نظمه كيف لا؟ وقد نفى عن نفسه هذه الصفة بقوله تعالى: (وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَا تُؤْمِنُونَ)[1].

أعجب من آراء بعض المستشرقين الذين يحاولون النيل من عظمة القرآن الكريم، ولقد دهشتُ كثيراً حينما اطلعت على بعض آراء المستشرقين حول القرآن الكريم، وهذا الكلام لا يزيدنا إلّا حبّاً وتمسكاً بكتاب الله عز وجل.

القرآن أعظم وأجل من أن يكون مجرد إنشاء جاء بطريقة عشوائية، أو لغرض الفاصلة ... فقد بلغ القرآن ذروة البلاغة في أسلوب التقديم والتأخير وسيأتي الحديث عن هذا لاحقاً بإذن الله. فالقرآن عندما يريد أن يقدم ويؤخر فإنه يراعي الأولوية في التقديم والتأخير فيبدأ بالأقدم ثم الذي يليه نحو قوله تعالى: (وَلَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتُلْقَى فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا مَدْحُورًا)[2] فقدم اللوم على الدحر(الطرد)؛ لأنّ الإنسان يلام أولاً ثم يطرد ثانياً، فهو تنبيه لمثل هؤلاء أن لايتطاولوا على كتاب الله .

أقول لهؤلاء المستشرقين انظروا إلى ترتيب الألفاظ وتقديمها وتأخيرها، فقد جاءت بطريقة (بلاغية)! وليس (عشوائية)! كما تدعون!.

وكيف استدللتم بآرائكم على أنّ القرآن مجرد إنشاء جاء بطريقة عشوائية؟! أقولها وبصراحة لدائرة (اللامعارف البريطانية) أقاويلكم هذه التي تدعونها على القرآن، لن تزيدنا إلا قوة وتمسكاً بأعظم كلام وأعظم كتاب وهو القرآن الكريم؛ لأنّه دستور البشرية، وكتاب الأولين والآخرين، إنّه بريء ونزيه عن الأقاويل والأكاذيب التي افتريتموها عليه، فهو أكبر وأعظم شأناً، كيف تجحدون بآيات الله وتتطاولون على عظمته ؟! قال تعالى : (لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُتَصَدِّعًا مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ)[3].

---

[1] الحاقة (41).

(2) الإسراء (39).

(3) الحشر (21).

العجب كله من ادعاءاتكم على كلام الله، وأنتم تدعون التقدم العلمي والتكنلوجي، من الذي أمدكم بأسباب التقدم ؟! أليس الله –جل جلاله–؟! وهو القائل في محكم كتابه (يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانْفُذُوا لَا تَنْفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ)[1]. أليس الله –جل جلاله–؟. أين أنتم من هذه الآيات والبراهين التي جاءت واضحة وضوح الشمس؟! .

لذا سيعرض في فصل الفاصلة القرآنية لهذا الموضوع ويعالج أبعاده بإذن الله.

---

[1] الرحمن (33) .

الباب الأول

التقديم والتأخير عند العلماء القدامى والمحدثين

الفصل الأول

التقديم والتأخير عند البلاغيين القدامى

التفت كثير من الدارسين القدامى إلى أسلوب (التقديم والتأخير) وأولوه عناية كبيرة في مؤلفاتهم وبحوثهم، ولا بدَّ قبل البدء في الحديث عن الغايات البلاغية التي يؤديها أسلوب (التقديم والتأخير) من أن نعرض لموقف هؤلاء الدارسين القدامى الذين سبقوا عبد القاهر الجرجاني، وأشاروا إلى هذا الفن الأسلوبي في التعبير.

والحقيقة أنّ أهم ملامح هذا الموقف تتلخص في استنكار هذا الأسلوب البلاغي والدعوة إلى اجتنابه إذا لم تدعُ إليه ضرورة، فقد أشار بعض الدارسين إلى ظاهرة (التقديم والتأخير) تحت مسميات أخرى، كالتقعير مثلاً. فهذا ابن قتيبة (ت273هـ) دعا إلى أن يجتنب الكتّاب أسلوب التقعير، فقال: "نستحب له إن استطاع أن يعدل بكلامه عن الجهة التي تلزمه مستثقل الإعراب ليسلم من اللحن وقباحة التقعير"[1].

ويبدو أنّه يقصد بمستثقل الإعراب ما لم يُعتد عليه من الترتيب الأصلي للكلام وهذا يترتب عليه تقديم وتأخير في الرتب النحوية.

بينما ذهب ابن المدبر (279هـ) في رسالته الموسومة بـ (الرسالة العذراء) إلى إيراد المعنى بصورة أوضح تعبر عن الظاهرة بقوله: "أدر الألفاظ في أماكنها، واعرضها مع معانيها، وقلبها على جميع جوانبها، حتى تقع موقعها، ولا تجعلها قلقة نافرة، فمتى صارت كذلك هجنت الموضع الذي أردت تحسينه، وأفسدت المكان الذي أردت إصلاحه، واعلم أنّ الألفاظ في غير أماكنها، والقصد بها في غير مظانّها،

---

[1] ابن قتيبة، أبو محمد عبدالله بن مسلم الكوفي، أدب الكاتب، تحقيق: محمد الفاضلي، دار الجيل، بيروت، (د.ط) 2001م، ص19.

كترقيع الثوب الذي إذا لم تتشابه رقاعه، ولم تتقارب أجزاؤه، خرج عن حد الجِّدة، وتغير حسنه"[1].

كذلك يؤكد ابن المدبر في هذا الموضوع أنّ الشعر موطنٌ للضرورات دون النثر، إذ يقول: "ولا يجوز في الرسائل ما يجوز في الشعر؛ لأنّ الشعر موضع اضطرار؛ فاغتفروا فيه الإغراب وسوء النظم والتقديم والتأخير، والإضمار في موضع الإظهار"[2].

أما قدامة بن جعفر (ت337هـ) فيذهب في كتابه (نقد الشعر) إلى أنّ أسلوب التقديم والتأخير من عيوب ائتلاف اللفظ والوزن، يقول: "هو ألا ينتظم للشاعر نسق الكلام على ما ينبغي لمكان العروض فيقدم ويؤخر[3]، كما قال دريد بن الصّمة:

وبلّغ نُمَيْراً –إِنْ عَرَضْتَ– ابْنَ عامرٍ فَـأَيُّ أَخٍ فـي النَّائبـاتِ وَطَالِـبِ[4]

فهو يرى أن الجملة المعترضة –إن عرضْتَ– هي نوع من التقديم والتأخير، حيث فرقت بين (نمير) و (ابن عامر) وبالتالي أدت إلى نوع من التعقيد والمعاضلة داخل البيت.

كما يذهب إلى أنَّ التقديم والتأخير لم يكن سهلاً على غالبية الناس، بقوله: "فكان يصعب فيه النظر على أكثر الناس"[1] ولا أعلم لماذا لم يميز بين عامة الناس

---

[1] ابن المدبر، الرسالة العذراء، تحقيق: زكي مبارك، دار الكتب المصرية، القاهرة، ط1، 1350هـ، 1931م، ص30.

[2] المصدر نفسه، ص19.

[3] قدامة بن جعفر، أبو الفرج، نقد الشعر، تحقيق: كمال مصطفى، ط3، (د.ت)، ص221–222.

[4] ابن الصمة، دريد، الديوان، تحقيق: عمر عبد الرسول، دار المعارف، القاهرة، (د.ط)، (د.ت)، ص36.

والدارسين المختصين بالبلاغة إلا إذا كان عامة الناس في عهده ممن يميلون إلى دراسة البلاغة!!

كما أشار الآمدي (ت370هـ) في كتابه (الموازنة) إلى مصطلح (الإساءة في النظم) أو ذم موقع اللفظ في تركيب الجملة، بقوله: "واعلم أن رديء اللفظ يكون على وجهين: إما أن تكون اللفظة من ألفاظ العوام سخيفة في نفسها، أو جيدة قد وضعت في غير موضعها، فصارت رديئة بذلك الموضع خاصة"[2].

والآمدي وإن لم يشر صراحة إلى مصطلح التقديم والتأخير، إلا أنّه وبقوله إنّ اللفظة إذا وضعت في غير موضعها صارت رديئة بذلك الموضع إنّما يحوم حول ذات المعنى الذي أوضحه ابن المدبر من قبل.

والمرزباني (ت384هـ) في كتابه (الموشح) قد سار على منهج السلف من الدارسين من أمثال: (ابن المدبر، والآمدي) فنعى في (موشحه) على قوم كلامهم الذي نهجوا فيه نهج التقديم والتأخير في نظم الشعر، فقال: "وقد وضع قوم الكلام في غير موضعه، فقدموا وأخروا"[3] نحو قوله:

صـدَدْتَ فأَطْوَلْـتَ الصُّـدُودَ وَقَلَّمَـا وصالٌ على طُولِ الصُّدُودِ يَدُومُ[4]

يقصد تقدم لفظة (وصال) في البيت، والأصل: وقَلَّما يدومُ وصال.

---

[1] قدامة بن جعفر، نقد الشعر، ص166.

[2] الآمدي، أبو القاسم الحسن بن بشر بن يحيى البصري، الموازنة بين الطائيين (أبو تمام والبحتري)، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، (د.ط)، (د.ت) ص.

[3] المرزباني، أبو عبيدالله محمد بن عمران بن موسى، الموشح في مآخذ العلماء على الشعراء، تحقيق: علي محمد البجاوي، مطبعة لجنة البيان العربي، (د.ط)، 1965، ص152.

[4] لم يذكر صاحب الموشح قائله.

أما أبو هلال العسكري (ت395هـ) فلم يخصص فصلاً حول التقديم والتأخير في كتاب (الصناعتين) وإنّما بدأ كلامه بحديث حول المعاني –جودتها وقبحها– بقوله: "والمعاني بعد ذلك على وجوه منها ما هو مستقيم حسن كقولك (قد رأيت زيداً) ومنها ما هو مستقيم قبيح نحو قولك (قد زيداً رأيتُ) وإنّما قبح لأنّك أفسدت النظام بالتقديم والتأخير"[1].

ولا نعرف كيف حكم على هذا التعبير بالاستقامة بقوله (قد زيداً رأيت)، ومن المعروف أنّ (قد) لا تدخل إلا على الأفعال، فهو يشير إلى مخالفة التركيب النحوي أكثر من إشارته إلى المعنى البلاغي؛ لذلك رأيناه ينصُّ على ضرورة الالتزام بقواعد النحو، في قوله: "فالمبتدأ مقدم، والفاعل مقدم، وصاحب الحال مقدم عليها، وتلك أوجه الكلام الفصيح فلا حاجة إلى التعقيد والإلغاز في التركيب، باستخدام التقديم والتأخير"[2].

ويظهر تعبير (النظم) عند العسكري والذي جاء سابقاً على الجرجاني في (نظرية النظم) فهو يؤكد عدم مخالفة قواعد النظم عند التأليف، يقول: "وسوء الرصفِ تقديم ما ينبغي تأخيره منها وصرفها عن وجوهها، وتغيير صيغتها، ومخالفة الاستعمال في نظمها"[3].

---

[1] العسكري، أبو هلال، الحسن بن عبدالله بن سهل، كتاب الصناعتين، تحقيق: مفيد قميحة، دار الكتب العلمية، بيروت– لبنان، ط1، 1401هـ– 1981م، ط2، 1404هـ– 1984م، ص85.

[2] المرجع نفسه.

[3] المرجع نفسه، ص179.

ولا يمكن الاستدلال من خلال هذا الموقف على ثناء، أو مدح لأسلوبية التقديم والتأخير، وإنّما يُستدل على استكراه كل ما من شأنّه مخالفة قواعد الرصف –الرتبة النحوية– المتعارف عليها.

وبذلك يتبين أنّ العسكري يستحب نسق الكلام المعتاد دون الاعتماد على أسلوب التقديم والتأخير في التراكيب، بقوله: "فتقدم منها ما كان يحسن تقديمه... فلا حاجة إلى التعقيد والإلغاز باستخدام التقديم والتأخير".

وبالانّتقال إلى القرن الخامس نجد ابن رشيق القيرواني (ت456هـ) صاحب (العمدة) يقف من التقديم والتأخير موقفاً غير واضح، فعلى حين يرى في التقديم والتأخير ضرورة شعرية، لا سيما في مجال ضبط الوزن والقافية، يعود ويسمي هذا الأسلوب (بالعيّ) يقول: "ومنهم من يقدم ويؤخر: إمّا لضرورة وزن، أو قافية، وهو أعذرُ؛ وإمَّا ليدُلَّ على أنّه يعلمُ تصريف الكلام، يقدر على تعقيده، وهذا هو العِيُّ بعينه"[1].

فهو وإن كان يلتمس العذر لمن اضطر لهذا الأسلوب (شعرياً) إلّا أنّه يعود للتأكيد على أنّ اللجوء إليه لغايات استعراضية إنّما هو عي وضعف.

ثم يعود ثانية ليعلن كراهيته لهذا الأسلوب بلغة أوضح، حين يصفه بالأسلوب المستثقل يقول: "ورأيت من علماء بلدنا من لا يحكم للشاعر بالتقدم ولا يقضي له بالعلم إلا أن يكون في شعره التقديم والتأخير، وأنا استثقل ذلك"[2].

---

[1] القيرواني، ابن رشيق، أبو علي الحسن، العمدة في محاسن الشعر وآدابه، تحقيق: محمد قرقزان، دار المعرفة، بيروت، لبنان، ط1، 1408هـ، 1988م، ص445.

[2] المصدر نفسه، ص447.

ويستشهد ابن رشيق على الإشكال الذي يصنعه التقديم والتأخير أثناء نظم الشعر بقول الفرزدق:

وَمَـا مِثْلُـهُ فـي النَّـاسِ إلّا مُمَلَّكـاً أَبُـو أُمِّـهِ حَـيٌّ أَبُـوهُ يُقَارِبُـهُ[1]

فهذا البيت وقع فيه من التعقيد المعنوي ما أشكل فهمه على القارئ، بحيث يصعب تبيين صلة القربى التي تربط الممدوح بالمملك (أي الملك) وهو من الأبيات التي استشهد بها الدارسون كثيراً بعد ذلك للاستشهاد على التعقيد المعنوي في الشعر.

وعلينا أن لا نظلم ابن رشيق، فقد كانت شواهده في التقديم والتأخير كلها في الشعر، فاستشهد بشعر الخنساء والفرزدق وأبي السفاح وغيرهم ولم يقصد التقديم والتأخير في القرآن الكريم، فلذلك نلتمس له العذر حين قال: "وأنا أستثقل ذلك" فهو يستثقله في الشعر فقط. إذ لا حجة له أن يستثقل ذلك في القرآن الكريم.

ولا ينبغي أن نغفل إشارات بلاغي آخر من بلاغيي القرن الخامس الهجري لأهميتها وهو ابن سنان الخفاجي (ت466هـ) في كتابه (سر الفصاحة) فقد أكد أنّ وضع الألفاظ في مواضعها، كمقوم من مقومات الفصاحة دون تقديم أو تأخير، يقول: "فمن وضع الألفاظ موضعها ألّا يكون في الكلام تقديم وتأخير حتى لا يؤدي ذلك إلى فساد معناه وإعرابه"[2].

وبذلك لا يخالف ابن سنان من سبقوه في فكرته حول استكراه هذه الظاهرة وجعلها سبباً في اعتلال فصاحة الألفاظ وفساد الإعراب.

---

[1] الديوان، الفرزدق، لم أجد هذا البيت في ديوان الفرزدق، لكنني وجدته في عدة مصادر: منها في أدب الكاتب لابن قتيبة، ونسبه ابن جنّي في خصائصه للفرزدق واستشهد به في الجزأين من كتابه، ج1، 147، ج2، ص395.

[2] الخفاجي، ابن سنان الأمير أبو محمد عبدالله بن محمد بن سعيد، سر الفصاحة، دار الكتب العلمية، بيروت– لبنان، ط1، (د.ت)، ص111.

وبذلك يتدرج قبول هذه الظاهرة عند الدارسين القدامى على النحو التالي: في القرآن الكريم، ولا مجال لرفضها أو استكراهها، ثم في الشعر للضرورة فقط ثم في الكلام المنثور –وهي فيه مستكرهة مستقبحة– لأنّ الضابط عندئذٍ هو الرتبة النحوية.

جهود النحويين في دراسة التقديم والتأخير:

النحويون القدامى:

تناول النحاة القدامى قضية التقديم والتأخير بالدراسة من عدَّة جوانب، فقد أشار سيبويه (ت180هـ) في (الكتاب) إلى بعض الأسرار البلاغية الماثلة وراء التقديم والتأخير في الكلام، وأكد على أهمية التقديم والتأخير ودوره في المعنى؛ وذهب إلى أنّ هذا الأسلوب وسيلة لإبراز العناية والاهتمام، يقول: "فإن قدمت المفعول وأخرت الفاعل؛ جرى اللفظ كما جرى في الأول، كقولك: ضرب زيداً عبدُالله؛ لأنّك أردت به مؤخراً ما أردت به مقدماً، ولم ترد أن تشغل الفعل بأول منه وإن كانوا يقدمون الذي ببيانه أهم لهم، وهم ببيانه أعنى، وإن كان جميعاً يهمانهم ويعنيانهم"[1].

والتقديم عند سيبويه يفيد أغراضاً بلاغية أخرى غير إبراز العناية والاهتمام، منها التقديم في باب ظنّ (عبدالله أظنُ ذاهباً) فالتقديم خرج إلى معنى بلاغي آخر وهو الظن. وفي باب الفعل (كسا) الذي ينصب مفعولين ليس أصلهما مبتدأً وخبراً، حيث يقول: "وإن شئت قدمت وأخّرت فقلت: كسىَ الثوبَ زيدٌ، وأُعطِىَ المالَ عبدُاللهِ، فالأمر في هذا كالأمر في الفاعل"[2].

---

[1] سيبويه، أبو بشر عمرو بن قنبر، الكتاب، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط3، 1988م، ج1، ص34.

[2] المصدر نفسه، ج1، ص42.

بينما ذهب المبرد (ت285)هـ في كتابه (المقتضب) عند تناوله موضوع التقديم والتأخير إلى جواز التقديم والتأخير في الأفعال المتصرفة، نحو: (غلامه كان زيداً ضرب) فأجاز نصب (الغلام) بـ (ضرب) فيقول: "تقديم خبر المتصرف من هذه الأفعال عليها جائز وكذلك تقديم معمول أخبارها عليها إلاّ في المنفي (بما)؛ لأنّ (ما) لها الصدارة في الكلام... وأمّا التقديم والتأخير في (إنّ) وأخواتها فلا يجيزه؛ لأنّها حروف جامدة غير متصرفة"[1].

وفي دراسة لابن جني (ت392) في كتابه (الخصائص) وضح وجوه الاتفاق والاختلاف مع قواعد النحو في التقديم والتأخير، فذهب إلى أنّ التقديم على نوعين: أحدهما ما يتفق مع القاعدة النحوية، والآخر ما يخرج عنها. فالأول كتقديم المفعول به على الفاعل وعلى الفعل، وتقديم ظرف الزمان والمكان، وتقدم الاستثناء على الاسم دون الفعل، كقولك: (ما قام إلّا زيداً أحد) ولا نقول: (إلّا زيداً قام القوم). وأجاز تقديم الخبر على المبتدأ، وتقديم خبر كان على اسمها، وعليها نفسها[2].

كما استقبح ابن جني تقديم التمييز على المميز، كما لم يجز تقديم نائب الفاعل، أو تقديم الفاعل على الفعل، واستنكر قضية تقديم المرفوع على رافعه[3].

وبعد: فهذا عرض سريع للإشارات الأولى في كتب النقد والبلاغة، قبل أن يتضح مصطلح التقديم والتأخير على يد عبد القاهر الجرجاني، ويستوي كسمة بلاغية لها شروحاتها وأغراضها. وقد ميز هذه الإشارات السريعة ما يلي:

---

[1] المبرد، أبو العباس محمد بن يزيد، المقتضب، تحقيق: محمد عبد الخالق عضيمة، عالم الكتب، بيروت، ط2، 1399هـ، 1979م، ج4، ص102-109.

[2] ابن جنّي، أبو الفتح عثمان، الخصائص، تحقيق محمد علي النجار، الهيئة المصرية العامة، ط3، 1407هـ، 1987م، ج2، ص384.

[3] المصدر نفسه، ج2، ص386-387.

1.استثقالهم لهذا الأسلوب ونعيهم على مستخدميه اللجوء إليه إلاّ لضرورة شعرية.

2. عدم قبول هذه الظاهرة في الكلام المنثور والحث على الالتزام بقواعد النحو كتقديم الفعل وتأخير المفعول به. وعدم تقدم الموصوف على الصفة أو جملة الصلة على الموصول.

3. قلة التفاتهم إلى الآيات القرآنية؛ لأنّ كلام الله لا يأتيه الباطل _ونصاً منهم على أنّه_ أي التقديم والتأخير في القرآن سمه إعجازية لا طاقة للبشر بها.

4. اكتفاؤهم بالشواهد الشعرية للتدليل على قباحة الأسلوب –في الاستخدام البشري– وما يسبب من معاضلة وتعقيد ومخالفة لقواعد اللغة.

5. تأكيدهم على تحكيم قواعد النحو وقانون (الرتبة) في بيان جواز تقديم ما تقدم وتأخير ما تأخر.

التقديم والتأخير في دراسات المحدثين:

أسهم الدارسون المحدثون في دراسة ظاهرة التقديم والتأخير بعدما أفادوا مما وصل إليه البلاغيون القدامى، ونجد المكتبة العربية قد ضمت مجموعة من المؤلفات الحديثة التي اهتمت بهذا الجانب من البلاغة. ولعل أهم هذه الدراسات ما قام به علي أبو القاسم في كتابه (بلاغة التقديم والتأخير في القرآن الكريم). حيث اقتصر فيه على دراسة هذه الظاهرة وحاول استقصاءَها في سور القرآن الكريم جميعها مبيناً مواضعها وأغراضها في كتاب ثلاثة مجلدات.

كما يعد الباحث فاضل السامرائي من خير مَنْ عالجوا اللمسات البيانية في القرآن الكريم ولطائف التعبير القرآني لاسيما في كتابه (لمسات بيانيه) غير أنّه خصص لظاهرة التقديم والتأخير فصلاً في كتابه (التعبير القرآني) من خلاله وضع يد

القارئ على مواطن الجمال والبلاغة الماثلين وراء هذه الظاهرة مستشهداً بآيات مختلفة من كتاب الله محللاً أغراضها وجمالياتها.

كما احتوت كتب البلاغة العامة على فصول عالجت هذه الظاهرة لعل أبرزها كتابا الباحث فضل حسن عباس (البلاغة فنونها وأفنانها) و (قضايا قرآنيه) حيث يشكل (التقديم والتأخير) أحد فنون علم المعاني وموضوعاته البارزة.

كذالك نشر الباحث أحمد نصيف الجنابي بحثاً عن (السياق الموسيقي للجملة العربية، وأثره في بنائها) تحدث فيه عن جوانب تخص الفاصلة القرآنية، ومن هذه الجوانب، التقديم والتأخير لأجل الفاصلة، وقد أشار العنبكي في كتابه (البناء اللغوي في الفواصل القرآنية) أنّ الجنابي أول من تحدث من المحدثين عن هذا الموضوع وذلك في بحثه المنشور عام 1978[1].

ويرد موضوع التقديم والتأخير ضمن مؤلفات خصصها أصحابها لدراسات بيانية أو جمالية في أسلوب القرآن الكريم من مثل:

(مناهج البحث البلاغي) لخديجة السايح، (جماليات التعبير في القرآن الكريم) لسامح الرواشدة، (علم المعاني في الموروث البلاغي) لحسن طبل.

وميز هذه المؤلفات أسلوب معالجتها لهذه الظاهرة، حيث توسع هؤلاء الدارسون في تحليل الشواهد القرآنية، ومعالجة الآيات من منظور حديث دون الاكتفاء بتحديد موضع الشاهد، وبيان الموقع الإعرابي للكلمة المتقدمة أو المتأخرة، بل حاولوا إظهار النواحي الجمالية، والأساليب التعبيرية الماثلة في الآيات الكريمة وقد أفادت هذه الدراسة من بعض هذه التحليلات لهؤلاء الدارسين وأوردتها في مواضعها.

---

[1] البحث منشور في مجلة آداب المستنصريه، العدد الرابع، 1979، نقلاً عن العنبكي، علي، البناء اللغوي في الفواصل القرآنية، دار صفاء، ط1، (د،ت)، ص81.

الفصل الثاني

الرتبة البلاغية (الغرض البلاغي)

إذا تعدى الباحث إشارات الدارسين القدامى إلى (التقديم والتأخير) من حيث الاستجادة أو الاستكراه، فإنّه سيلج بعد ذلك مرحلة نضج هذا المصطلح وتحوله إلى علم له قواعده، وأسلوبه ومعانيه وأغراضه. وذلك بعد أن دخل (الذوق) والنظرة التنعمية إلى ما وراء هذا الأسلوب وما يتطلع إليه منشئ النص من أغراض.

وقد نعى الجرجاني على الناس اقتصارهم في فهم أسلوب التقديم والتأخير على غاية (العناية والاهتمام) وكأنّ تقديم اللفظ على غيره إنّما يكون لغاية واحدة، وهي الاعتناء بالمتقدم لا غير، يقول: "وقد وقع في ظنون الناس أنّه يكفي أن يقال إنّه قدم للعناية و لأنّ ذكره أهم من غير أن يذكر من أين كانت تلك العناية. وبما كان أهم. ولتخيلهم ذلك. قد صغر أمر (التقديم والتأخير) في نفوسهم، وهونوا الخطب فيه، حتى أنك لترى أكثرهم يرى تتبعه والنظر فيه ضرباً من التكلف، ولم ترَ ظناً أزرى على صاحبه من هذا وشبهه"[1].

وقد استطاع الجرجاني إذا ما قورن رأيه بآراء السابقين أن يسلك مسلكاً وعراً في دراسة هذا الباب، ويمهد لمن جاء بعده الطريق للولوج إلى دقائقه، فقد عالج خفاياه معالجةً شائقةً جامعاً بين الجانب النظري والجانب العملي[2].

---

[1] الجرجاني، عبد القاهر، دلائل الإعجاز، ص87.

[2] غنام، محمد فواز، أسلوب التقديم والتأخير في القرآن الكريم على رأي عبد القاهر الجرجاني، رسالة ماجستير (مخطوط) الجامعة الأردنية، كلية الدراسات العليا، 1993م، ص7.

ففي (الدلائل) نقل عبد القاهر هذا الموضوع من الحيّز الضيق –معرفة الصواب والخطأ من الناحية النحوية– إلى المجال الأرحب، وهو معرفة النحو البلاغي للعبارة أو ما يسمى بـ (الرتبة البلاغية) للتقديم والتأخير.

وقد قسم الجرجاني التقديم والتأخير إلى قسمين:

1. التقديم على نية التأخير، كتقديم الخبر على المبتدأ، وتقديم المفعول به على الفاعل، كقولك: (منطلقٌ زيدٌ) و (ضرب عمراً زيدٌ). ومعروف أنّ (منطلق) و (عمراً) لم يخرجا بالتقديم عما كانا عليه من كون هذا خبر مبتدأ، وكون ذلك مفعولاً به منصوباً.
2. التقديم لا على نية التأخير، وهو التقديم الذي يتغير فيه موقع الكلمة الإعرابي، مثل تقديم ما كان أصله فاعلاً، كقولك: (ضربت خالداً) و (خالداً ضربته) لم تقدم خالداً على أن يكون مفعولاً منصوباً بالفعل ولكن على أن ترفعه بالابتداء وتشغل الفعل بضميره وتجعله في موضع الخبر له.

ويبني عبد القاهر تحليله للآيات والشواهد عند دراسته للتقديم والتأخير على محاولة ربط الشاهد بالسياق العام الذي هو فيه، كما يلجأ إلى دراسته حال المنشئ صاحب الخطاب إن نفسياً فنفسياً وإن عقدياً فعقدياً من مثل تحليله لقوله تعالى: (فَقَالُوا أَبَشَرًا مِّنَّا وَاحِدًا نَّتَّبِعُهُ إِنَّا إِذًا لَّفِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ)[1].

يقول معللاً تقديم لفظ (أبشراً): وذلك لأنّهم بنوا كفرهم على أنّ من كان مثلهم بشراً، لم يكن بمثابة أن يُتّبع ويُطاع، وينتهي إلى ما يأمر ويصدق أنّه مبعوث من الله تعالى، وأنّهم مأمورون بطاعته"[2].

---

[1] القمر، (24).

[2] الجرجاني، عبد القاهر، ص143–144.

فالتقديم والتأخير عند عبد القاهر، عنصر من عناصر المعاني النحوية وسمة أسلوبية من سمات النظم الذي يبني عليه نظريته في فهم إعجاز القرآن الكريم.

يقول شوقي ضيف واصفاً أسلوبه في التحليل: "ومن أطرف الأشياء حقاً. أن نقرأه وهو يحلل صورة من الكلام مثل: "ما أنا قلت هذا" "ما قلت أنا هذا" إذ يضع في أيدينا فروقاً بين هاتين العبارتين، وبين غيرهما من العبارات، فروقاً تلمس لمساً بحيث يصبح كتابه "الدلائل" أشبه بمتحف"[1].

غير أنّنا لا بدَّ أن نشير عند الحديث عن (الرتبة البلاغية) إلى جهود الزجاجي (ت 337) الذي سبق الجرجاني في محاولة تعداد الأغراض البلاغية التي يخرج إليها التقديم والتأخير في كتابه (الأمالي) حيث أشار إلى أربعة أغراض بلاغية يؤديها التقديم والتأخير، يقول: "اعلم أنّ للأشياء مراتب في التقديم والتأخير، فمنها ما يكون إمّا بالتفاضل، أو بالاستحقاق، أو بالطبع، أو على حسب ما يوجبه المعقول، فإذا سبق معنى من المعاني على الخلد والفكر بأحد هذه الأسباب أو بأكثرها، سبق اللفظ الدال على ذلك المعنى السابق، وكان ترتيب الألفاظ بحسب ذلك[2].

فالزجاجي يعرض لأربعة أغراض تكمن وراء التقديم والتأخير هي:

1. التقديم بالتفاضل.
2. التقديم بالاستحقاق.
3. التقديم بالطبع أو الذات.
4. التقديم بحسب ما يقتضيه العقل.

ويمكن توضيح هذه الأغراض بقولنا إن التقديم بالتفاضل يعني مراعاة رتبة الشرف كتقديم موسى على هارون في قوله تعالى: ﴿قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ * رَبِّ مُوسَىٰ

---

[1] ضيف، شوقي، البحث الأدبي، دار المعارف، القاهرة، ط7، (د.ت)، ص138.

[2] الزجاجي، أبو القاسم عبد الرحمن بن إسحاق البغدادي النهاوندي، الأمالي، تحقيق: عبد السلام هارون، دار الجبل، بيروت، ط2، 1987م.

وَهَارُونَ)[1]. وتقديم الوجه على اليد في قوله تعالى: (فاغْسِلُواْ وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُواْ بِرُؤُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ)[2].

وأمّا التقديم بالاستحقاق فيقصد به الرتبة النحوية، كتقديم الفاعل على المفعول والموصوف على الصفة.

وأمّا التقديم بالذات فتقدم الواحد على الاثنين، أو الثلاثة على الأربعة، كقوله تعالى: (الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا أُولِي أَجْنِحَةٍ مَّثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاء إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ)[3].

فهذه التفاصيل القيمة تلقي الضوء على كثير من مواطن التقديم والتأخير في القرآن الكريم، وتدعو القارئ للتلبث والتأمل قبل إطلاق الحكم التقليدي على هذا التقديم بأنّه جاء للأهمية فحسب.

ويلفت نظر الدارسين قول الزجاجي: "فإذا سبق معنى من هذه المعاني على الخلد أو الفكر بأحد هذه الأسباب أو بأكثرها سبق اللفظ الدال على ذلك المعنى"[4].

فهذا لفت للقارئ إلى أنّ ما يدور على الخلد أولاً يترجم إلى لفظ فوري في أول الكلام.

وفي دراسة للعلوي المتوفى (705هـ) يرى في تحليل له لقوله تعالى: (وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ)[5] أن تقديم (رجالاً) في الآية إنما جاء مراعاة للرتبة: يقول: "إنّ تقديم (رجالاً) فيه وجهان، الأول: أن يكون تقدماً بالرتبة، فإن الغالب أنّ (الرجالة) إنّما يأتون من الأمكنة القريبة، و (الركبان) يأتون من

---

[1] الأعراف، (121- 122).

[2] المائدة، (6).

[3] فاطر، (1).

[4] الزجاجي، أبو القاسم، الآمالي.

[5] الحج، (27).

الأمكنة البعيدة، فلهذا قدم (الرجالة). والثاني: أن يكون تقديم (الرجالة) لأجل الفضل، فإنّ من حج (راجلاً) أفضل ممن حجّ (راكباً)[1].

فمثل هذهِ الوقفات الجميلة في تقصي أغراض التقديم والتأخير تعلم قارئ القرآن كيف يتدبر مواقع الألفاظ وتقدم بعضها على بعض.

فإذا تقدمنا زمانياً باحثين في هذه الظاهرة نجد ابن الأثير ت (637هـ) يعرض في كتابه (المثل السائر) لمزيد من الأغراض المعنوية لهذه الظاهرة، كالتقديم بالسبب، وتقديم الأكثر على الأقل، والتقديم للدلالة على قدرة الخالق وغيرها. فقد جعل التقديم والتأخير على ضربين هما:

الأول: يختص بدلالة الألفاظ على المعاني، ولو أُخر المقدم أو قُدِّم المؤخر، لتغير المعنى، وهذا هو التقديم والتأخير المعنوي.

الثاني: يختص بدرجة التقدم في الذكر لاختصاصه بما يوجب له ذلك، ولو أخر، لما تغير المعنى، وهو يقصد هنا التقديم والتأخير النحوي[2].

وإذا أمكنا الوقوف على جماليات التقديم والتأخير عند ابن الأثير من خلال دراسته لقوله تعالى: (وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِن قُرْآنٍ وَلاَ تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلاَّ كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلاَ فِي السَّمَاءِ)[3].

فإننا نجده يعلل تقدم ذكر الأرض على السماء بقوله: "إنّما قدم الأرض في الذكر على السماء، ومن حقها التأخير؛ لأنّه لما ذكر شهادته على شؤون أهل الأرض

---

[1] العلوي، يحيى بن حمزة بن علي بن إبراهيم، الطراز، مكتبة المعارف، الرياض، بيروت– لبنان، (د.ط)، 1400هـ، 1980، ج2، ص60.

[2] ابن الأثير، أبو الفتح ضياء نصر الله بن محمد بن محمد بن عبد الكريم، المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، مطبعة مصطفى البابي الحلبي مصر، (د.ط) 1358هـ– 1939م، ج2، ص38.

[3] يونس، (61).

وأحوالهم، ووصل ذلك بقوله: (وَمَايَعْزُبُ) لاءم بينهما؛ لِيَلِيَ المعنى المعنى. فإن قيل: قد جاء تقديم الأرض على السماء في الذكر في مواضع كثيرة من القرآن، قلنا: إذا جاءت مقدمة في الذكر فلا بد لتقديمها من سبب اقتضاه، وإن خفي ذلك السبب، وقد يستنبطه بعض العلماء دون بعض"[1].

فهو هنا يؤكد أن تقديم (السماء) على (الأرض) هو الأصل لأنّه تقديم بالفضل والشرف، لكن العدول عن ذلك هنا كان مقصوداً لمناسبة سياق الآية كما وضح.

ويرى الباحث أنّ التقديم جاء هنا للتدرج من الأقرب إلى الأبعد؛ لأنّه بدأ بالأقرب وهي (الأرض) ثم الأبعد وهي (السماء).

وفي القرن الثامن نجد الزركشي (ت794هـ) في كتاب (البرهان في علوم القرآن) يتوّج الدراسات السابقة بذكر خمسة وعشرين سبباً للتقديم والتأخير وبذلك استوت الظاهرة على يديه باباً كاملاً من أبواب علم المعاني، ونورد من هذهِ الأسباب على سبيل المثال[2] لا الحصر:

التقديم للتحذير، والتقديم للتنبيه، والتقديم لمراعاة الإفراد، والتقديم للتعجب، والتقديم للترتيب. ويضرب أمثلة على بعض هذه الأغراض من ذلك. قوله تعالى: (الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشاً وَالسَّمَاء بِنَاء)[3]. فقد قدم الأقرب على الأبعد. وقوله تعالى: (قُلْ مَن رَّبُّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ)[4].

---

[1] ابن الأثير، المثل السائر، ج2، ص49.

[2] الزركشي، بدر الدين محمد بن عبدالله، البرهان في علوم القرآن، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعرفة، بيروت، لبنان، ط2، (د.ت)، ج3، ص238.

[3] البقرة، (22).

[4] المؤمنون، (86).

فقد تنقل من الأبعد إلى الأدنى وفي قوله تعالى: (شَهِدَاللّهُ أَنّه لاَ إِلَـهَ إِلاَّ هُوَ وَالْمَلاَئِكَةُ وَأُوْلُواْ الْعِلْمِ)[1]. تم التنقل من الأعلى إلى الأدنى، وفي قوله تعالى: (وَلاَ يُنفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلاَ كَبِيرَةً)[2]. تم التنقل من الأدنى على الأعلى.

وفي تعقيبه على قوله تعالى: (يَوْمَ يُحْمَىعَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَى بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْوَظُهُورُهُمْ)[3]. قدم الجباه ثم الجنوب لأنّ مانع الصدقة في الدنيا كان يصرف وجهه عن الفقير أولاً، ثم ينوء بجانبه ثم يتولى بظهره، وعلى هذا السياق جاء التقديم، فتدرج بحسب الرتبة.

وفي تقدم المال على البنين في قوله تعال: (الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا)[4]. يرى فيه (مراعاة للإفراد).

وأرى أن تقديم المال على البنين علته أنّ المال قد يكون زينة لجميع الناس، بينما الأبناء زينة للآباء فقط. وكذلك الحاجة إلى المال أمسّ من الحاجة إلى الأبناء في الغالب، والمال يعد زينة بذاته بخلاف البنين فلا يكونون زينة إلّا بوجود المال. ولهذا السبب تقدم ذكر المال على البنين.

ولا ينبغي إغفال جهود السيوطي (ت911هـ) في كتابيه (الإتقان في علوم القرآن) و (معترك الأقران في إعجاز القرآن) فقد ذكر عشرة أنواع للتقديم والتأخير هي: التقديم للتبرك، والتقديم للتشريف، والتقديم للمناسبة، والتقديم للحث عليه، والتقديم بالسبق المكاني أو الزماني، والتقديم بالعلة والسببية، والتقديم للتعظيم، والتقديم بالغلبة والكثرة، والتقديم للترقي من الأدنى إلى الأعلى، والتقديم للتدلي من الأعلى إلى الأدنى[5].

---

[1] آل عمران، (18).

[2] التوبة، (121).

[3] التوبة، (35).

[4] الكهف، (46).

[5] ينظر: السيوطي، أبو الفضل جلال الدين عبد الرحمن أبي بكر، معترك الأقران في إعجاز القرآن، تحق: أحمد شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1408هـ-

ويلفت النظر استخدامه لتعبيري (الترقي) و (التدلّي) وهو مما انفرد به في التعبير، ويقصد بذلك الانتقال إلى الأعلى أو إلى الأدنى كالانتقال من ذكر الله إلى الملائكة إلى أولي العلم في حال التدلي، والأنتقال من ذكر الأرض إلى السماء في حال الترقي في بعض الآيات الكريمة.

فهذه جهود أبرز الدارسين في عرض هذا الباب من أبواب علم المعاني، بلغ ذروته على يد الزركشي في (البرهان) وصارت له قواعد يمكن الإفادة منها في دراسة القرآن وبيان بعض وجوه إعجازه.

1988م، 27، ج1، ص131. والسيوطي، جلال الدين عبد الرحمن، الإتقان في علوم القرآن، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، (د.ط)، 1407هـ، 1987، ج3، ص35.

الفصل الثالث

الفاصلة القرآنية بين البلاغة والنحو

الفاصلة لغة: وردت مادة (فصل) دالة على معان أهمها: بون ما بين الشيئين، والقطع، والقضاء بين الحق والباطل، والحاجز بين الشيئين، وواحد الفصول، والتفصيل: التبيين.

وهي أيضاً: الخرزة التي تفصل بين الخرزتين في النظام. وقد فصّل النظم، أي جعل بين كل لؤلؤتين خَرَزَة[1].

وقد عرّفها ابن منظور (ت711هـ) بقوله: "وأواخر الآيات في كتاب الله فواصل بمنزلة قوافي الشعر، واحدتها فاصلة"[2].

ونحا الزركشي (ت794هـ) هذا المنحى فعرّفها بأنّها: "كلمة آخر الآية كقافية الشعر وقرينة السجع"[3].

ولعل تسمية الفاصلة جاءت من قوله تعالى: ﴿كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾[4]. بمعنى وإنّما سميت فواصل: "لأنّه ينفصل عندها الكلامان، وذلك أنّ آخر الآية فصل بينهما وبين ما بعدها"[5].

ومن قبلهما عرض الباقلّاني (ت403هـ) لموضوع الفاصلة القرآنية وأكد على أنّها (تابعة للمعاني كما وردت في القرآن، ولا تكون المعاني تابعة لها، فيكون ذلك وضعاً لها في غير موضعها)[6].

---

(1) ابن منظور، أبو الفضل جمال الدين، محمد بن مكرم، لسان العرب، دار صادر، بيروت، (د.ط)، (د.ت)، مادة (فصل).

(2) المصدر نفسه، مادة (فصل).

(3) الزركشي، البرهان، ج1، ص53- 98.

(4) فصلت، (3).

(5) الزركشي، البرهان، ج1، ص54.

(6) الباقلاني، أبو بكر محمد بن الطيب، إعجاز القرآن، تحقيق: السيد أحمد الصقر، دار المعارف، المعارف، مصر، (د.ط) 1963م، ص271.

وهذا التأكيد من الباقلّاني على تبعيتها للمعاني يعكس موقفاً هاماً من موضوع السجع والإيقاع في القرآن الكريم، ومن كونه غير مقصود لذاته.

ولم يشر الجرجاني إلى التقديم والتأخير في الفاصلة القرآنية أو يأتِ بشواهد على ذلك، غير أنّه في كلامه على الإعجاز القرآني ذكر علاقة المشابهة بين الفاصلة القرآنية والقافية الشعرية حين قال: وإنّما الفواصل في الآي كالقوافي في الشعر[1].!!

وقد اختلف الدارسون في قضية ورود الفاصلة ما إن كان ورودها غايةً في ذاته لغرض الإيقاع، أم أنّها تأتي عفوية بعد خدمة المعاني التي سبقتها، وهذا كلام خطير لأنّ له علاقة بالنظرة إلى الإعجاز القرآني وقدرة الخالق عز وجل على التوفيق بين المعنى والإيقاع.

ويمكن تقسيم مواضع التقديم والتأخير في الفاصلة القرآنية إلى أربعة أقسام هي:

1. ما يختص بالجملة الاسمية.
2. ما يختص بالجملة الفعلية.
3. ما يختص بمكملات الجملة.
4. ما يختص بالفصل النحوي.

ويمكن أن نعرض القول في كل قسم من الأقسام السابقة على النحو الآتي:

القسم الأول: ما يختص بالجملة الاسمية:

ويدور الحديث في هذا القسم حول سياقات التقديم والتأخير في الفاصلة القرآنية التي خدمت الأغراض البلاغية، ويمكن أن نورد بعض الشواهد القرآنية على ذلك من مثل قوله تعالى: (وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ)[2]. فقد جاءت على التركيب الآتي: (مبتدأ نكرة + ظرف + خبر شبه جملة).

والأصل في مثل هذا الأسلوب–لو كان في غير القرآن– أن يؤخر المبتدأ لأنّه نكرة، ويُقَدَّم الخبر لأنّه شبه جملة؛ وعلة ذلك أنّ قواعد النحو تنص على أنّ من شروط تقديم الخبر على المبتدأ وجوباً أنّ يكون الخبر شبه جملة، والمبتدأ نكرة غير موصوفة.

---

[1] الجرجاني، عبد القاهر، دلائل الإعجاز، ص250.

[2] المرسلات، (15).

وعلى هذا السياق كان لا بدَّ أن يكون تركيب الآية –في غير القرآن– على النحو التالي: (للمكذبين يومئذٍ ويلٌ) أو (للمكذبين ويلٌ يومئذٍ).

فالتقديم والتأخير هنا أفاد الغرض البلاغي بالدرجة الأولى، دون أن يتعارض مع قواعد النحو؛ لأنه يجوز الابتداء بالنكرة لغرض الدعاء كقوله تعالى: (سلامٌ عليكم)، وهو الإسراع بالإساءة والبشرى بالعذاب للمكذبين، ومن ثم جاءت الفاصلة بصورة عفوية وتلقائية، وليس لخدمة الإيقاع والسجع.

ومن ذلك تقديم الخبر –شبه الجملة– على المبتدأ في قوله تعالى: (وَالْتَفَّتِ السَّاقُ بِالسَّاقِ إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمَسَاقُ)[1]. فالتعبير روعي فيه حسن النظم في تقدم الجار والمجرور (إلى ربك) إلا أنّ الغاية البلاغية مقدمة على ذلك وهي الاختصاص، أي اختصاص (ربك) بهذا الأمر دون غيره.

ومن ذلك تقديم الجار والمجرور على متعلقه في قوله تعالى: (ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ)[2]. علل ابن الأثير ذلك بقوله: "فإنّه لم يقدم السلسلة على السلك للاختصاص، وإنّما قدمت لمكان نظم الكلام، ولا شك أنّ هذا النظم أحسن من أن لو قيل: ثم اسلكوه في سلسلة ذرعها سبعون ذراعاً"[3].

وعجباً لابن الأثير في قوله هذا كيف يجعل من التقديم والتأخير وسيلة لتحقيق النظم وكأننا في مضمار تأليف قصيدة!!.

وينكر ابن الأثير على الدارسين ذهابهم في تعليل التقديم والتأخير في كثير من الأحيان إلى غرض الاختصاص، ففي قوله تعالى: (وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ(22)إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ)[4]، يرفض أن يكون تقديم الخبر –إلى ربها– بهدف بيان الاختصاص، ولكنه

---

[1] القيامة، (29–30)

[2] الحاقة، (32).

[3] ابن الأثير، المثل السائر، ج2، ص40.

[4] القيامة (22–23).

يعود للقول: "أي تنظر إلى ربها دون غيره"[1] فتعبيره هذا فيه نص على الاختصاص وإن لم ينص عليه مباشرة.

بينما لا ينكر الزمخشري غاية الاختتصاص، وينص على تمثلها في كثير من مواضع الآي الكريم، يقول: "ألا ترى إلى قوله تعالى: (إِلى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ)[2] (إِلى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمَسَاقُ)[3] (إِلى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ)[4] (وَإِلى اللّهِ الْمَصِيرُ)[5] (وَإليه تُرْجَعُونَ)[6] (عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإليه أُنِيبُ)[7] كيف دل فيها التقديم على معنى الاختصاص"؟[8].

القسم الثاني: ما يختص بالجملة الفعلية:

من المعروف أنّ هيكلة الجملة الفعلية مبنية على تقدم الفعل على الفاعل، إذ يعدان ركنين أساسيين في الجملة لا غنى لأحدهما عن الآخر، ويتعدى الفعل إلى نصب ركن آخر هو المفعول به، بل ويمنحه رخصاً تركيبية غاية في الجمال، ومن هذه الرخص التقدم على الفاعل، والتقدم على الفعل. وما يعنينا هو ملابسة سياقات التقديم والتأخير في الجملة الفعلية مع سياقات الفاصلة في هذه الجملة.

فمن ذلك قوله تعالى: (سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ وَتَغْشَى وُجُوهَهُمْ النَّارُ)[9]، ففي تقديم المفعول به –وجوههم– غاية بلاغية عظيمة وهي لفت النظر إلى المهانة التي تلحقهم ممثلة في تقديم وجوههم التي كانوا يعتزون بالإعراض من خلالها عن ذكر الله.

---

(1) ابن الأثير، المثل السائر، ج2، ص40.

(2) القيامة، (12).

(3) القيامة، (30).

(4) الشورى، (53).

(5) النور، (42).

(6) الروم، (11).

(7) الشورى، (10).

(8) الزمخشري، الإمام محمود بن عمر،الكشّاف، تحقيق، مصطفى حسين أحمد، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، (د.ط)، 1406هـ– 1986م، ج4، ص649.

(9) إبراهيم، (50).

ومن ذلك قوله تعالى: (سَاء مَثَلاً الْقَوْمُ الَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا وَأَنفُسَهُمْ كَانُواْ يَظْلِمُونَ)[1].

ففي تقدم المفعول به –أنفسهم– تخصيصٌ لهم بالظلم وإبرازٌ لهم في هذا الباب وليس إفساحاً للفاصلة التي تلته بالظهور.

كما أنّ المفعول به قد يتقدم على فعله وجوباً إذا كان واقعاً في جواب (أمّا) الشرطية، أو فعله فعل أمر مسبوقاً بـ(فاء) واقعاً في جواب (أمّا) المقدرة. مثل قوله تعالى: (فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ*وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ)[2]. وقوله تعالى: (وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ* وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ*وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ)[3].

فتقديم المفعول به في هذه الآيات جاء مطابقاً للرتبة النحوية فكان تقدمه واجباً وتقدير الكلام: وأما ربك فكبر وأما ثيابك فطهر وأما الرجز فاهجر.

وقد جاء الإعجاز في هذه الآيات الكريمة محققاً القاعدة النحوية بتقدم المفعول به وجوباً كما أدى الغرض البلاغي من التقديم وهو إظهار العناية بالنبي –ﷺ– (فهو المخاطب في هذا المقام)، كل ذلك دون أن يخل بالإيقاع الجميل الواقع من خلال (الراء) التي امتازت بها هذه السورة.

ويعج القرآن الكريم بعشرات المواضع التي يتقدم فيها المفعول به على فاعله دون أن يكون الغرض من وراء ذلك خدمة الفاصلة أو إقحامها.

القسم الثالث: ما يختص بالمكملات:

والمقصود بالمكملات المتعلقات بالجمل ممثلة بالنعت وتقديمه على منعوته، والحال وتقدمها على عاملها، والمفعول المطلق وتقدمه على فعله، وأشباه الجمل – الظرف والجار والمجرور– حيث يؤدي التقديم والتأخير في سياقاتها إلى تقاطع مع الفاصلة القرآنية، وظهور نسق لا بُدَّ من التأمل فيه، وهذه بعض الشواهد:

---

[1] الأعراف، (177).

[2] الضحى، (9).

[3] المدثر، (3– 5).

تقديم المفعول المطلق:

والمفعول المطلق أحد متعلقات الجملة ومكملاتها وقد يتقاطع مع الفاصلة القرآنية في سياق التقديم والتأخير من ذلك: (قُلْ هُوَ الَّذِي أَنشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ)[1]. وقوله تعالى: (وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَا تُؤْمِنُونَ)[2].

والتركيب الرتبي لهذه الآيات هو: تشكرون شكراً قليلاً، تؤمنون إيماناً قليلاً، حيث ناب التعبير (قليلاً) عن المصدر وتقدم عليه في كلتا الآيتين.

ويبدو للوهلة الأولى أنّ التقديم والتأخير قد تم لمراعاة الفاصلة، والمشاكلة الصوتية، بحيث تنسجم مع (النون) التي تنتهي بها الآيات الكريمة، ولكن التأمل في المعنى يكشف عما هو أدق من هذه الغاية وهو بيان فظاعة النكران لدى الإنسان، مقارنة مع النعم المسداة إليه، فقدم لفظ (قليلاً) على الفعل تشكرون/تؤمنون؛ للفت النظر إلى البون الشاسع بين ما ينبغي وبين ما قُدّم!.

تقديم الحال على عاملها:

ويعجب القارئ لذهاب الدارسين في تحليل قوله تعالى: (وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَى* فَجَعَلَهُ غُثَاء أَحْوَى)[3]، إلى أنّ تركيب الآيات الكريمة إنّما جاء لرعاية الفواصل[4]. ولتوضيح ذلك فإنّ الآيتين الكريمتين توضحان قدرة الله سبحانه وتعالى على إخراج المراعي (الأرض الخضراء) ثم تحويلها في دورة الحياة المعتادة إلى غُثاء[5]. و(الأحوى)[6].

---

(1) الملك، (23)

(2) الحاقة، (41).

(3) الأعلى، (4-5).

(4) العنبكي، علي عبدالله، البناء اللغوي في الفواصل القرآنية، دار صفاء للنشر، ط1، 2011م، ص98.

(5) ابن منظور، لسان العرب، مادة (غثا) (ما يحمله السيل من القش والزبد والقذر).

(6) المصدر نفسه، مادة (حوا) النبات الذي قد اسّودّ.

وقد أُعربت أحوى إعرابين، الأول: أنّها صفة لغثاء، وحينئذٍ لا تقديم في الكلام، والثاني أنّها حال من (المرعى) وعندئذٍ يكون تقدير الكلام: أخرج المرعى أحوى، فجعله غثاء. وقد أيّد الإعراب الثاني كل من الفرّاء[1] والنحاس[2] بينما ذهب أبو حيّان إلى الإعراب الأول بقوله: "والظاهر أنّ أحوى صفة لـ (غثاء) ويتابع: "وحسن تأخير (أحوى) لأجل الفواصل"[3].

وإلى ذلك ذهب ابن هشام فقال: "وإنّما الواجب أن تكون حالاً من المرعى وأخّر لتناسب الفواصل. وكذلك الزركشي ذهب إلى أن تأخير أحوى إنّما وقع رعاية للفواصل[4].

ومع تقديري للإيقاع الرائع لكلمة (أحوى) وتناسقها مع سابقتها –مرعى– إلا أنّ ترتيب الكلمات على هذا النحو جاء ترتيباً تلقائياً لا أثر فيه لمحاولة جلب الفاصلة وهذا من إعجاز القرآن، وقدرته على التوفيق بين المعاني وإيقاعها.

القسم الرابع: ما يختص بالفصل النحوي:

من ذلك ما تقوم به أشباه الجمل من دور غير الذي تقوم به بالنسبة للمتعلق به. هذا الدور يتمثل في كونها (فواصل بمعنى معترضات) بين أجزاء الجملة الواحدة. ويمكن أن نلتمس الدلالات لهذه المواضع. في مثل قوله تعالى: (ذَلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ)[5].

---

(1) الفراء، أبو زكريا يحيى بن زياد، معاني القرآن، تحقيق: عبد الفتاح إسماعيل شلبي، مراجعة: علي النجدي ناصف، الهيئة المصرية العامة للكتاب، (د.ط)، 1972، ج3، ص256.

(2) النحاس، أبو جعفر أحمد بن محمد بن إسماعيل، إعراب القرآن، تحقيق: زهير غازي زاهد، عالم الكتب، مكتبة النهضة العربية، بيروت، ط3، 1409هـ، 1988م، ج5، ص204.

(3) الأندلسي، أبو حيان محمد بن يوسف، البحر المحيط، تحقيق: عادل أحمد عبد الموجود، وعلي محمد معوض، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1422هـ، 2001م، ج8، ص453.

(4) الأنصاري، ابن هشام أبو محمد عبدالله جمال الدين بن يوسف ابن أحمد عبدالله المصري، مغني اللبيب، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، (د.ط)، (د.ت)، ج2، ص535.

يَسِيرٌ)[1]. فقد فصل هنا بالجار والمجرور (علينا) بين الخبر (حشر) الموصوف وصفته (يسير). فالفصل جاء هنا بين الصفة والموصوف. وتقدير الكلام –في غير القرآن–: (ذلك حشر يسير علينا). فالتقديم أفاد الاختصاص والتوكيد ومن ثم جاءت الفاصلة بصورة تلقائية.

وبعد:

فهذه نبذة عن علاقة الفاصلة القرآنية بالتركيب النحوي، وقد حاولت أن أثبت أنّ الفاصلة ليست غرضاً مقصوداً لذاته في كلام الله، وإنّما كان الغرض البلاغي سابقاً عليها، وبذلك تكون غاية ترتيب الكلمات القرآنية على النحو الآتي:

الغرض البلاغي أولاً، والالتزام بأصول اللغة العربية –الرتبة النحوية– ثانياً وأخيراً يأتي الإيقاع عفوياً غير مقصود لذاته.

وبعد هذا العرض الموجز لرأي الدارسين القدامى في علاقة الفاصلة القرآنية بظاهرة التقديم والتأخيرالتي تسبقها في الآيات الكريمة. لا يسعني إلا أن أعلن مراراً استنكاري لربط الفاصلة القرآنية بغاية الإيقاع، كما يفعل الشعراء وقد وصفهم الله بالغي: (وَالشُّعَرَاء يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ(224)أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ(225)وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ)[2]، يقول (السعدي) في تفسيره لمعنى (الغاوون): "المقبلون عن طريق الغي، فهم في أنفسهم غاوون. وتجد أتباعهم كل غاوٍ، ضال وفاسد. فتارة في مدح، وتارة في قدح وأخرى يتغازلون، وأخرى يسخرون، ومرة يمرحون، فلا يستقر لهم قرار، ولا يثبتون على حال"[3].

ومهما كانت حجة هؤلاء، ومن قولهم بأنّ الإيقاع غاية من غايات الإعجاز، وأنّه يأتي إلى جانب الغرض البلاغي، فإنّ حديثهم لا يسوّغ تأكيدهم على أنّ الألفاظ قد تتقدم أو تتأخر لغاية الإيقاع؛ لأنّ الله قادر على تحقيق هذه الغاية دون تقديم أو

---

[1] سورة ق، (44).

[2] الشعراء، (224– 226).

[3] السعدي، عبد الرحمن ناصر، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنّان، قدم له فضيلة الشيخ محمد بن صالح العثيمين، مكتبة فياض، ط1، 1430هـ، 2009م، ص629.

تأخير، وقد وصف نفسه سبحانه: (قُل لَّوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا)[1].

فالتقديم والتأخير لا يأتي اعتباطاً في القرآن الكريم، ولا تلتوي أعناق الكلمات لتحقيق الموسيقا والسجع بل تتقدم وتتأخر لأغراض بلاغية جمّة نعلم قسماً منها مثل (الاختصاص، والتوكيد، والأهمية، والعناية والتدرج من الأعلى إلى الأدنى ومن الأدنى إلى الأعلى والإسراع بالمسرة والإساءة....) والقسم الآخر لا يعلمه إلاّ الله.

ويحضرنا هنا ما وقع للوليد بن المغيرة، وكان أعلم الناس في زمنه بالشعر والنثر والخطابة، حين سمع القرآن الكريم لأول مرة فقال: (والله إنّ له لحلاوة وإنّ عليه لطلاوة وإنّ أعلاه لمشرق، وإنّ أسفله لمغدق)[2] وحين لامته قريش تراجع عن موقفه ووصفه بالسحر فنزل فيه قوله تعالى: (أَنَّه فَكَّرَ وَقَدَّرَ (18) فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ (19) ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ (20) ثُمَّ نَظَرَ (21) ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ (22) ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ (22) فَقَالَ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ (24) إِنْ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ (25) سَأُصْلِيهِ سَقَرَ)[3].

---

[1] الكهف، (109).

[2] الحاكم، أبو عبدالله محمد بن عبدالله بن محمد بن حمدويه النيسابوري، المستدرك على الصحيحين، تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، ط1، 1411هـ، 1990م، ج2، ص550. والباقلاني، أبو بكر، (ت403هـ)، تحقيق: محمد عبد المنعم خفاجي، دار الجيل، بيروت، ط1، 1991م، ص31.

[3] المدثر (18-26).

القرآن هو كلام تحدٍ للعرب، ولجميع الخلق بأن يأتوا بسورة من مثله، قال تعالى: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءكُم مِّن دُونِ اللّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (23) فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَن تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾[1].

وقد أكد التحدي مرة أخرى، بقوله تعالى: ﴿قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الْأِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَـذَا الْقُرْآنِ لاَ يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾[2].

فجوانب إعجازه لا تعدُّ ولا تحصى، أدبية كانت أم علمية، صوتية أو بلاغية، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وتتوالى إعجازاته إلى قيام الساعة يقول الدكتور: فاضل السامرائي: "أهو كتاب لغة أم كتاب أدب أم كتاب تشريع أم كتاب اقتصاد أم كتاب تربية أم كتاب تأريخ أم كتاب اجتماع أم كتاب سياسة أم كتاب عقائد أم هو كل ذلك وفوق ذلك؟! عجيب أمر هذا الكتاب"[3]!! .

ويضيف السامرائي قائلاً: "يراه الأديب معجزاً، ويراه اللغوي معجزاً، ويراه أرباب القانون والتشريع معجزاً، ويراه علماء الاقتصاد معجزاً، ويراه المربون معجزاً، ويراه علماء النفس والمعنيون بالدراسات النفسية معجزاً، ويراه علماء الاجتماع معجزاً، ويراه المصلحون معجزاً، ويراه كل راسخٍ في علمه معجزاً"[4].

---

[1] البقرة، (23– 24).

[2] الإسراء، (88).

[3] السامرائي، فاضل صالح، التعبير القرآني، دار عمار، عمان– الأردن، ط8، 1434هـ، 2012م، ص19.

[4] المرجع نفسه، ص19.

الباب الثاني

من جماليات التقديم والتأخير في القرآن الكريم

يزخر القرآن الكريم بأسلوبية التقديم والتأخير، بحيث يُعدُّ باباً عظيماً من أبواب البلاغة، ومبحثاً هاماً من مباحث علم المعاني يحتاج إلى وقوف طويل لتدبر أغراضه وتتبع غاياته.

بعد أن تكلمت عن أسلوب التقديم والتأخير وأهميته في اللغة العربية، يجدر بي الآن أن أورد أجمل الآيات القرآنية في التقديم والتأخير، والأسرار البلاغية وراء ذلك التقديم، أي الفوائد المعنوية واللفظية التي اقتضت التقديم والتأخير في ضوء جماليات القرآن الكريم حول هذا الأسلوب الفني، فلا شك أنّ لكل موضع تقديم أو تأخير غاية بلاغية إعجازاً بلاغياً عظيماً لها جذور عريقة؛ لفائدة المعنى المطلوب وراء هذا الأسلوب مع مراعاة مقتضى الحال؛ لأنّ البلاغة هي مطابقة الكلام لمقتضى الحال مع فصاحته.

فالتقديم والتأخير هو أسلوب فني جميل، لكن كلام الله أضفى عليه جمالاً أكثر، وأوله أهمية كبرى بين أساليب البلاغة، الغرض البلاغي أولاً ثم الغرض النحوي ثانياً ثم الفاصلة القرآنية ثالثاً؛ لأنّ القرآن الكريم له خصوصية في هذا الأسلوب وغيره ليفتح أبواباً واسعة أمام هذا الفن، إلى أن نزل هذا الكتاب العظيم ليرفع من قدر هذا الأسلوب حتى أصبح شمعة مضيئة في علوم العربية؛ ليطال نوره في أفاقها .

إنّ جماليات التقديم والتأخير من الفنون البلاغية الرائعة التي عرفها أهل العلم والذين أوتوا حضاً من المعرفة في مواضع الكلام، وقد بلغ القرآن الكريم ذروة في هذا الأسلوب، وارتقى أعلى رتبة في وضع اللفظة بمراعاة السياق المعنوي الذي ورد فيه بل راعى جميع المواضع التي وردت فيها الألفاظ ونظر إليها نظرة واحدة وشاملة في

القرآن كله، فترى الكلام متسقاً ومترابطاً مع غيره، لا أقول كأنّه لوحة أو صورة فنية بل أجمل وأبهى وأسمى وأرفع من ذلك!!! فهو دقيق في تقديم الألفاظ وتأخيرها دقة عجيبة !!! قال تعالى (قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا، يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا)[1] ويبقى القرآن معجزة على العلماء والكتّاب والأدباء والبلغاء والراسخين في العلم؛ لأنّه معجزة الرسول _ﷺ_ الخالدة إلى يوم القيامة.

وقد وقف السلف من هذه الظاهرة البلاغية موقف الحائر في بداية نزول القرآن الكريم، لكنهم عادوا وأدركوا مراميها، فقد روى السيوطي ت (911هـ) أنّ السلف رضوان الله عليهم قد أشكل عليهم معنى بعض الآيات، فلما عرفوا أنّها من باب التقديم والتأخير اتضح مدلولها. فقد أخرج ابن أبي حاتم عن قتادة في قوله تعالى: (فَلاَ تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلاَ أَوْلاَدُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا)[2].

قال: هذا من تقادم الكلام، يقول: "لا تعجبك أموالهم في الحياة الدنيا إنّما يريد الله ليعذبهم بها في الآخرة"[3].

وتوضيحاً للرواية السابقة فإنّ السلف احتاروا كيف يكون التعذيب في الحياة الدنيا بسبب الأموال والأولاد. ثم علموا أنّ في الآية تقديماً وتأخيراً، ومقتضى الكلام "لا تعجبك أموالهم ولا أولادهم في الحياة الدنيا" فتنبهوا للأسلوب البلاغي الماثل في الآية.

رغم أنّ المعنى قد يكون بخلاف ما ذهب إليه السيوطي من تقدير كلام محذوف مفاده (ليعذبهم بها في الآخرة)؛ لأنّ الإنسان قد يُعذب بأولاده وأمواله في الدنيا قبل الآخرة، حين يعقّه أبناؤه أو يسيء استخدام أمواله.

---

[1] الجن (1-2) .

[2] التوبة، (55).

[3] السيوطي، المعترك، ج1، ص129.

وعدّ ابن جنّي ظاهرة التقديم والتأخير من مظاهر شجاعة العربية، ففيها إقدام على مخالفة لقرينة من قرائن المعنى، من غير خشية لبس، اعتماداً على قرائن أخرى،[1] ووصولاً بالعبارة إلى دلالات وفوائد تجعلها عبارة راقية ذات رونق وجمال.

وقد يكون التقديم والتأخير سبباً في لطف التعبير وجمال الإيقاع، يقول عبد القاهر الجرجاني واصفاً التقديم والتأخير: "ولا تزال ترى شعراً يروقك مسمعه، ويلطف لديك موقعه، ثم تنظر فتجد سبب أنْ راقك ولطف عندك، أن قدم فيه شيئاً، وحوّل اللفظ من مكان إلى مكان"[2].

وسوف أعرض لبعض مواطن التقديم والتأخير في القرآن الكريم، مما نصّ العلماء على تحديدها وتبيّن أسرار عظمتها وإعجازها، ولكن ينبغي قبل ذلك من التنبيه على أمر هام، وهو وجوب عدم البت في قضية الغرض البلاغي الماثل وراء هذه الظاهرة للأسباب التالية:

1. إنّ التقديم والتأخير قد يحتمل أكثر من غاية وغرض، من ذلك ذهاب فاضل السامرائي في تحليله لقوله تعالى: (وَمَن يُطِعِ اللّهَ وَالرَّسُولَ فَأُوْلَـئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاء وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا)[3].

يقول: وقد يكون التقديم بحسب الفضل والشرف فقدم الله على الرسول، ثم قدم السعداء من الخلق بحسب تفاضلهم، فبدأ بالأفضلين وهم النبيون، ثم ذكر من بعدهم بحسب تفاضلهم، كما تدرج من القلة إلى الكثرة، فبدأ بالنبيين وهم أقل الخلق، ثم الصديقين وهم أكثر، ثم الشهداء، ثم الصالحين، فكل صنف أكثر من الذي قبله، فهو تدرج من القلة إلى الكثرة، ومن الأفضل إلى الفاضل. ولا شك أنّ أفضل الخلق هم أقل الخلق إذ كلما ترقى الناس في الفضل قل صنفهم"[4].

---

[1] ابن جنّي، الخصائص، ج2، ص362.

[2] الجرجاني، عبد القاهر، دلائل الإعجاز، ص85.

[3] النساء، (69).

[4] السامرائي، التعبير القرآني، ص54.

فقد نص الباحث على أنّ غاية التقديم هو الفضل والشرف، ثم عاد لينص على غرض آخر، وهو التدرج من القلة إلى الكثرة، وبذا يصعب البت من قبل الباحثين بالغاية؛ لأنّها قد تتعدد وتتفرع وتتشعب.

2. إنّ القرآن الكريم ماضٍ بإعجازه إلى يوم القيامة، وما يظهر لنا من غايات وأسرار قد يتناسب مع معطيات عصرنا وبيئتنا، ولكن قد يظهر للأجيال اللاحقة غايات أخرى تتناسب ومعطيات عصرهم وعلومهم. وبذا لا يجوز القطع والبت عند شرح الآيات وتفسيرها.

3. إنّ البت في غايات التقديم والتأخير قد يترتب عليه تغيّر في أحكام الفقه والعبادة، من ذلك قوله تعالى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلاةِ فاغْسِلُواْ وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُواْ بِرُؤُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَينِ)[1].

فتقديم الوجه على اليدين، والرؤوس على الرجلين، ينبني عليه أحكامٌ في الوضوء لا بدَّ من مراعاتها.

4. إنّ ما يرد متقدماً في آية ما، قد يأتي متأخراً في آية أخرى، وبذا لا يجوز القول بتقدم هذا المعنى بصورة مطلقة، من ذلك قوله تعالى واصفاً البحر: (وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ)[2]، وفي سورة أخرى: (وَتَرَى الْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ)[3].

فالتقديم والتأخير في الجار والمجرور (فيه) لم يأتِ عبثاً، وإنّما للفت النظر في الآية الأولى لحركة السفن وهي مواخر[4]، وقد جاءت عقب حديث عن وسائط النقل الخيل والبغال والحمير، بينما جاءت الثانية متقدمة لتشير إلى البحر؛ لأنّ الحديث السابق عليه يشير إلى البحر، وما أودع الله فيه من النعم.

فينبغي على الباحث في هذا الباب أن يتحرى أغراض ورود اللفظ ومواضعه والتأكد من وروده متقدماً، أو متأخراً في مواطن أخرى من القرآن الكريم.

---

[1] المائدة، (6).

[2] النحل، (14).

[3] فاطر، (12).

[4] ابن منظور، لسان العرب، مادة (مخر)، تشق الماء مع صوت.

ولعل أعظم مواطن التقديم والتأخير في القرآن الكريم، ما دل على ألوهية الله وعظمته، فبدأت بذكر الله وتقدم ذكره على ما سواه لغاية القصر، أي قصر الألوهية على ذاته سبحانه وتعالى، من ذلك قوله تعالى: (اللّهُ لاَ إِلَـهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لاَ تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلاَ نَوْمٌ)[1].

فتقديم المسند إليه (الله) جل جلاله، جاء للتنبيه على معنى القصر، أي اختصاص الله سبحانه بالألوهية دون سواه. فيكون لوقع هذا التقديم جلال وتعظيم في نفس السامع. وتتعدد مواقع هذا التقديم في القرآن الكريم كقوله تعالى: (اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ)[2]. (اللّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ)[3].

وقد يكون تقدم ذكره سبحانه (للتبرك) حثاً للخلق على البسملة، والبدء بذكر الله، من ذلك تحرك سفينة نوح –عليه السلام– وطلبه إلى من حوله التبرك بذكر الله: (وَقَالَ ارْكَبُواْ فِيهَا بِسْمِ اللّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا)[4].

وأصل التركيب اللغوي –خارج القرآن: (مجراها ومرساها بسم الله) فتقدم الجار والمجرور وهو في الأصل خبر المبتدأ ومكانه التأخر، فكان التقديم لغاية التبرك والبسملة، أي ببركة الله إجراؤها وإرساؤها.

ويأخذ القارئ إحساسٌ بالعظمة والمهابة حين يشير التقديم والتأخير إلى غاية التعجب وإذهال السامع، لا سيما في الآيات التي تصف قدرة الله في الخلق والإبداع الكوني، من ذلك قوله تعالى: (وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ)[5].

---

(1) البقرة، (255).

(2) النور، (35).

(3) إبراهيم، (2).

(4) هود، (41).

(5) الأنبياء، (33).

يقول البيضاوي في تفسيره: "وفي الجملة الاسمية –كل في فلك يسبحون– إظهار لعظمة الله وقدرته سبحانه، وبيان لإحكام قبضته وتنويه بدقة ناموسه، وفي تقديم (في فلك) على متعلقه دلالة على عظمة الخالق، وعجائب قدرته سبحانه وتعالى، فالكواكب تسرع على سطح الفلك إسراع السابح على سطح الماء[1]، ومع هذه السرعة العالية لا يحدث أي انفلات ولا خلل، ولا يقع تصادم، في هذا الصنع العجيب، فكأنّ هذه الكواكب عاقلة، تتحكم في أمر سيرها، ولهذا السبب عاد عليها ضمير العقلاء، وهو واو الجماعة في قوله (يسبحون)، وما عود ضمير العقلاء إلا للوصف بفعلهم وهو السباحة"[2].

وهي إشارة لطيفة من البيضاوي حول استخدام الضمائر عند حديثه عن التقديم والتأخير، وأصل الكلام: كلٌّ يسبحون في فلك، فجاء تقديم الجار والمجرور (في فلك) للتعجب من سباحة هذه الأجرام على سطح الفلك، بل إنّ استخدام ضمير العقلاء في قوله (يسبحون) تدل على أنّ هذه الأجرام مأمورة بهذه الحركة التعجبية، كما البشر فأضفى هذا التشخيص على الصورة روعة ومهابة!!

وينكر الباحثون على من يذهب إلى أنّ هذا التقديم والتأخير إنّما جاء لخدمة الفاصلة القرآنية، فالإعجاز البلاغي الذي أفاده التقديم هو التعجب، وليس كما ذهب بعضهم لرعاية الفاصلة، وأيّ فاصلة وراء هذا الإبداع الذي لا تدركه الأبصار؟!

وهذا الكلام يؤيده كلام في موضع آخر جاء متناسباً مع الآية السابقة، قال تعالى: (لَا الشَّمْسُ يَنبَغِي لَهَا أَن تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ)[3]

---

[1] البيضاوي، ناصر الدين أبو الخير عبدالله بن عمر بن محمد الشيرازي الشافعي، تفسير البيضاوي. أنوار التنزيل وأسرار التأويل، إعداد محمد عبد الرحمن المرعشلي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، ط1، 1418هـ– 1998م، ج4، 50. وينظر: أبو السعود، محمد بن محمد بن مصطفى العمادي الحنفي، تفسير أبي السعود أو إرشاد العقل السليم، تحقيق: عبد اللطيف عبد الرحمن، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1419هـ، 1999م، ج4، ص335.

[2] الزمخشري، الكشاف، ج3، ص115.

[3] يس، (39).

فجملة (وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ) أكدت الانتظام في سير الشمس والقمر، وفي تعاقب الليل والنهار، وأكدت أيضاً التناسق العجيب والترابط المحكم، وتقديم (في فلك) على متعلقه (يسبحون) يظهر سيرها فيه بانبساط[1]، وهذا يلفت الانتباه إلى عجائب قدرة الخالق في سير كل من الشمس والقمر، كلٌّ في فلكه الخاص بهِ، وفق نظام غير إلكتروني، أو كهربائي، أو ميكانيكي، أو هندسي دقيق ولا غير ذلك من الأنظمة المتطورة في نظرنا فهي لا شيء عند الله سبحانه وتعالى، وحاشا لله -جل وعلا- أن نقارن هذه الاختراعات البسيطة، بعجائب صنعه سبحانه وتعالى!!! وعند الرجوع إلى صنع الباري -عز وجل- نجده أعجبَ وأدهشَ مما تقدم، ويكفينا أن نتأمل تعاقب الليل والنهار، فهذا الإبداع يدفعنا إلى التفكر والتدبر، واللجوء إلى الله سبحانه وتعالى كما جاء في قوله تعالى: (إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلاَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لِّأُوْلِي الأَلْبَابِ(190) الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ)[2]!!!

وفي تقديم (في فلك) إشارة لاهتمام المتأمل وشد لانتباهه إلى عظمة الخالق في سيطرته على هذا الكون العجيب!!! فالإعجاز البلاغي الذي أفاده التقديم هو التعجب وليس -كما ذهب بعضهم- لرعاية الفاصلة، وأيّ فاصلة وراء هذا الإبداع الذي لا تدركه الأبصار. وهذا التقديم يعدّ من وأعظم وأعجب جماليات التقديم والتأخير في القرآن الكريم!!!

ويقود الحديث عن التقديم لإظهار معنى الألوهية لله سبحانه للإشارة إلى أشهر الآيات التي تدل على معنى الاختصاص وقصر العبادة على إله واحد، وهو الله سبحانه وذلك في قوله تعالى في سورة الفاتحة: (إِيَّاكَ نَعْبُدُ وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ)[3].

---

[1] البيضاوي، أنوار التنزيل، ج3، ص 449.

[2] آل عمران، (190-191).

[3] الفاتحة، (5).

فقد قُدّم المفعول به (إياك) على متعلقه (نعبد) كذلك متعلقه (نستعين)؛ لأنّ الله وحده يختص بالعبادة، وبه وحده تتم الاستعانة، وجُعل هذا المعنى في مفتتح الكتاب العزيز، لتغلق الطريق أمام أي خيارات مقبولة أخرى أمام الإنسان، لطلب الاستعانة أو الهداية أو التوجه.

وحول تقديم الفعل نعبد على الفعل نستعين، تقول الباحثة خديجة السايح: "قدّم العبادة على الاستعانة؛ لأنّ تقدم القربة والوسيلة قبل طلب الحاجة، أنجح لحصول الطلب، وأسرع لوقوع الإجابة"[1].

ومن لطيف ما توصل إليه الدارسون حول مفتتح سورة الفاتحة أن التعبير في قوله تعالى: (اهدِنَا الصِّرَاطَ المُستَقِيمَ) لم يتقدمه الضمير الدال على المفعول به، فلم يقل (إيانا اهدِ) وحول تفسير ذلك يقول فاضل السامرئي: "والسبب في ذلك أنّ طلب الهداية لا يصح فيه الاختصاص؛ إذ لا يصح أن نقول: "اللهم اهدني وحدي، ولا تهدِ أحداً غيري، أو خصني بالهداية دون الناس، كما نقول اللهم ارزقني واشفني وعافني، فأنت تسأل لنفسك، ولم تسأله أن يخصك وحدك بالرزق والشفاء والعافية، فلا يرزق أحداً غيرك ولا يشفيه ولا يعافيه"[2].

ومن المواضع الجميلة الدالة على التقديم والتأخير لغرض الاختصاص، قوله تعالى: (قُلْ هُوَالرَّحْمَنُ آمَنَّا بِهِ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا)[3].

فقدم الفعل (آمنا) على الجار والمجرور (به) وأخر (توكلنا) على الجار والمجرور (عليه) وذلك "أنّ الإيمان لما لم يكن منحصراً في الإيمان بالله، بل لا بدَّ معه من رسله وملائكته وكتبه واليوم الآخر وغيره، مما يتوقف صحة الإيمان عليه بخلاف التوكل، فإنّه لا يكون إلّا على الله وحده؛ لتفرده بالقدرة والعلم القديمين الباقيين،

---

[1] السايح، خديجة، مناهج البحث البلاغي، منشأة المعارف، الأسكندرية، ط1، 2000م، ص161.

[2] السامرائي، التعبير القرآني، ص50.

[3] الملك، (29).

قدم الجار والمجرور فيه ليؤذن باختصاص التوكل من العبد إلى الله دون غيره؛ لأنّ غيره لا يملك ضراً ولا نفعاً فيتوكل عليه"[1].

كذلك تظهر جمالية التخصيص في قول الله سبحانه على لسان النبي -ﷺ- مخاطباً المشركين: "لكم دينكم ولي دين"[2].

ويظهر معنى التخصيص في الآية السابقة، عند قصر المسند إليه على المسند المتقدم أي قصر (الدين) على المتقدم (لكم) (لي) ومعنى ذلك أنّ لكل منا دينه الخاص به الذي لا يتجاوزه إلى سواه[3].

وقد قطع الباحثون القدامى أشواطاً بعيدة في القدرة على التأمل والتذوق الإبداعي للآيات القرآنية، فهذا عبد القاهر الجرجاني ينبه على جمالية الإضمار إذا تقدم، يقول: "إنّ الشيء إذا أُضمر ثم فُسّر كان ذلك أفخم له من أن يذكر من غير تقدم إضمار"[4]، ويضرب شاهداً على ذلك قوله تعالى: (فَإِنها لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ)[5] يقول: "ففي الآية فخامة وشرف لا نجد منها شيئاً في قولنا: فإنَّ الأبصار لا تعمى"[6].

ويضرب مثالاً آخر على جمالية تقديم المضمر في قوله تعالى: (إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ)[7] يقول: "إنّه يفيد من القوة في نفي الفلاح عن الكافرين ما لو قيل إنّ الكافرين

---

[1] الزركشي، البرهان، 2، 414. وينظر الرازي، محمد الرازي فخر الدين العلامة ضياء الدين عمر، تفسير الفخر الرازي، المشتهر بالتفسير الكبير ومفاتيح الغيب، المشتهر بخطيب الريّ، دار الفكر، بيروت، لبنان، (د.ط)، 1410هـ- 1990م، ج29، ص76.

[2] الكافرون، (6)

[3] ينظر: طبل، حسن، علم المعاني في الموروث البلاغي، مكتبة الإيمان، جامعة الأزهر، ط2، 1425هـ- 2004م، ص129.

[4] الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص99.

[5] الحج، (46).

[6] الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص99.

[7] المؤمنون، (117).

الكافرين لا يفلحون، لم يُفد ذلك... فقد بيّن ولوّح ثم صرّح، ولا يخفى مكان المزية فيما طريقه هذا الطريق"[1].

فالجرجاني يرى في بلاغة التقديم والتأخير فخامةً وشرفاً وهذا الإحساس لا يؤاتي إلا متذوق متأمل، وقد دعا القرآن إلى هذا التأمل بقوله تعالى: (أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا)[2].

كذلك أدرك صاحب (الإيضاح) أنّ مرامي الآيات الكريمة قد يكون في تقديمها وتأخيرها أبعد مما يظن القارئ، ففي تقديم أسماء الإشارة أغراض ذكية يدركها المتأمل، يقول: "ربما جُعل البعد ذريعة إلى التعظيم[3]: (ذَلِكَ الْكِتَابُ لاَ رَيْبَ فِيهِ)[4]، وربما جعل القرب ذريعة إلى التحقير مثل[5]: (وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ)[6].

وهذا الفهم والتذوق يحتاج منا إلى سنين طويلة حتى نصل إلى مرحلة هؤلاء البلاغيين في التدبر والتأمل!!

وفيما يلي عرض لبعض مواطن الجمال التي تعكس هذه الظاهرة البلاغية العظيمة، أذكرها على سبيل التمثيل لا الحصر؛ لأنّ أغراض التقديم والتأخير يستحيل حصرها؛ لأنّها تُعدّ بعض أغراض الكلام، وقد عبّر الشارع عن هذا المعنى بقوله تعالى: (قُل لَّوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَاتِ رَبِّيلَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا)[7].

وهذا تصوير جميل لإمكانات اللغة القرآنية، فهي بحر لا حدود لاتساعه، فكيف يمكن حصر الأغراض البلاغية الكامنة في أعماق هذا البحر!! هذا محال!.

---

(1) الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص99.

(2) محمد، (24).

(3) القزويني، الإيضاح، ص119- 120.

(4) البقرة، (1-2).

(5) القزويني، الإيضاح، ص119-120.

(6) العنكبوت، (64).

(7) الكهف، (109)

ونبدأ بغرض التقديم لغرض التناسب المعنوي:

ونضرب عليه شاهداً قوله تعالى: (وَأَنزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِن صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا)[1]. وموطن الشاهد قوله تعالى: (فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا) فقدم (فريقاً) وهو مفعول به على عامله (تقتلون) ولم يقدمه على (تأسرون) في التعبير اللاحق. وهذا ينسجم مع المعنى المحقق خارج النص، فلولا تقدم المقاتل لما قُتل ولولا قتله لما أسر الذي تأخر عنه، فتقديم الألفاظ وتأخيرها جسّد لنا صورة واقعية معبرة عن الواقع، فالتقديم جاء مقرراً لما حدث في ساحة المعركة من جانبين، الأول أنّ المقدّم مقتول، والمؤخر مأسور، وهذا ما جاء متناسباً في المعنى، أي أنّ الإعجاز البلاغي الذي ظهر من وراء التقديم والتأخير هو الاهتمام والتناسب المعنوي[2].

وفي دراسة أسلوبية لسامح الرواشدة رأى في التقديم والتأخير الماثلين في الآية الكريمة ما يعكس أسلوبية الانزياح تارة، والبقاء على البعد المعياري للتركيب اللغوي تارة أخرى، يقول:

"إن هذا التقديم يجعل للاسم المقدم ميزة مهمة، فالأهمية للفئة التي خُصّت بالقتل واستحقته، إنّها الفئة التي أدارت الفتنة، وكانت قادرة على المشاركة في التآمر على المسلمين، إنّهم مناط الفاعلية في الحدث، فلولاهم لما وقعت الخيانة، ولما نقض الحدث؛ لذلك ميزت هذه الفئة –الفريق– فوضعت سابقة على العهد، مع أنّ الحدث نفسه يكشف ثقل ما وقع عليهم من عقوبة، حيث كان مصيرهم القتل"[3].

ويرى الرواشدة أنّ الفئة الثانية –المأسورة– عبر عنها النص بصورة معيارية لا انزياح فيها، حيث قُدمّ الفعل على الفاعل، ويعلل ذلك بقوله: "أما الفئة الثانية وهي

---

[1] الأحزاب، (26).

[2] ينظر: أبو القاسم، علي، بلاغة التقديم والتأخير في القرآن الكريم، دار المدار الإسلامي، بيروت، لبنان، ط1، 2006م، ج2، ص597 598.

[3] الرواشدة، سامح عبد العزيز، جماليات التعبير في القرآن الكريم، دار صايل للنشر والتوقيع، ط1، 2013م، ص102.

الفئة التي كانت نصيبها الأسر، فلقد خضعت للبعد المعياري للتركيب فقال: "وتأسرون فريقاً" إنّها فئة غير قادرة على الدفاع عن نفسها، وهي ليست عنصراً فاعلاً في الصراع؛ لذلك يكون نصيبها الأسر، وهو أمر طبيعي ومألوف، إذ إنّ العادة عند العرب تقوم على سبي من يقع في يد الجنود من النساء والأطفال؛ لذلك ظلت ضمن السياق دون انزياح"[1].

ومن شواهد (التناسب المعنوي) أيضاً قوله تعالى: (ذَلِكُمُ اللّهُ رَبُّكُمْ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ)[2]، فقدم الوصف بالوحدانية ليناسب ذلك ما تقدمه في قوله تعالى: (وَجَعَلُواْ لِلّهِ شُرَكَاء الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُواْ لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ)[3]. وقوله تعالى: (أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُ صَاحِبَةٌ)[4]، فالكلام في تقرير وحدانية الله سبحانه وتعالى ولهذا السبب قدّمه[5] على قوله: (خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ).

وفي هذا الباب –باب التناسب المعنوي– التفت كثير من الدارسين إلى قضية رزق الأولاد، ورزق الآباء في قوله تعالى: (وَلاَ تَقْتُلُواْ أَوْلادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُهُم وَإِيَّاكُم)[6]، وقوله: (وَلاَ تَقْتُلُواْ أَوْلاَدَكُم مِّنْ إِمْلاَقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ)[7].

فقدم رزق الآباء على الأبناء في الآية الأولى، وفي الثانية قدم رزق الآباء على الأبناء، وذلك أنّ الكلام في الآية الثانية موجّه للفقراء وليس للأغنياء، فهم يقتلون أولادهم من الفقر الواقع بهم، فأوجبت البلاغة تقديم عدتهم –أي وعدهم– بالرزق، لتكميل العدة برزق الأولاد، وفي الآية الأولى وجّه الخطاب لغير الفقراء وهم الذين

---

(1) المرجع السابق، ص102.

(2) الأنعام، (103).

(3) الأنعام، (101).

(4) الأنعام، (102).

(5) أبو القاسم، بلاغة التقديم والتأخير في القرآن الكريم، علي، ص597.

(6) الإسراء، (31).

(7) الأنفال، (151).

يقتلون أولادهم، لأنّهم يخشون أن تسلبهم كلف الأولاد ما يملكون من المال، فوجب تقديم العدة برزق الأولاد، فيأمنوا ما خشوا عليه من الفقر، أي أنّ الله جعل معهم رزقهم، فهم لا يشاركونكم في رزقكم فلا تخشوا الفقر[1].

وخلاصة الفكرة أنّ الكلمة القرآنية قد تتقدم هنا وتتأخر هناك، فيظن القارئ أنّ الأمر فيه تكرار للفكرة ذاتها، ثم يفطن إلى الفرق الدقيق بين الموضعين –إن فتح الله عليه باب التفطن والتدبر– ليدرك أنّ كلام الله معجز، لا في سوره وآياته فحسب، بل في اللفظة الواحدة والحرف الواحد، فسبحان الله العظيم!!!

التقديم والتأخير لغاية إظهار مراتب الحب والإيثار:

قد يرد ترتيب الألفاظ في الآية القرآنية دالاً على مراتب المحبة، وصلة الرحم التي تحرك الإنسان، ففي قوله تعالى: ﴿فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءنَا وَأَبْنَاءكُمْ وَنِسَاءنَا وَنِسَاءكُمْ وَأَنفُسَنَا وأَنفُسَكُمْ﴾[2].

تم تقديم الأبناء على النساء، كما تم تقديم النساء على الأنفس، وحول تغيير هذا الترتيب يقول الزمخشري: "وخصّ الأبناء والنساء؛ لأنّهم أعزّ الأهل، وألصقهم في القلوب، وربما فداهم الرجل بنفسه وحارب دونهم حتى يُقتل... وقدمهم في الذكر على النفس لينبه على لطف مكانهم، وقرب منزلتهم، وليؤذن بأنّهم مقدمون على النفس مُفدّون بها"[3].

غير أنّ الزمخشري لم يفصّل الحديث حول تقديم الأبناء على النساء، وما إذا كان الإنسان يفتدي ولده أولاً أم زوجته، غير أنّ موقعاً آخر في القرآن يفصّل هذا الأمر، وذلك حين يصور مشهد الناس يوم الحساب، وفرارهم من أحب الناس إليهم لهول الموقف، وخوف الحساب، وهو من أشد الصور القرآنية تأثيراً في النفس، وترهيباً

---

[1] السامرائي، التعبير القرآني، ص64.

[2] آل عمران، (61).

[3] الزمخشري، الكشاف، ج1، ص 369– 370.

من شدة ذلك اليوم، يقول تعالى: (يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ)[1]، فالتقديم هنا أفاد التدرج بالرتبة من الأبعد إلى الأقرب.

وقد يجادل بعض الناس في هذا المعنى زاعمين أنّ الأبوين أعزّ وأغلى من الصاحبة والبنين، بدليل واقعهم أو ظروفهم المعيشة، ولكن جدالهم هذا لا يعكس إلا مخالفة للفطرة التي فطر الله الناس عليها، التي اقتضت أن ينتمي الإنسان لأسرته أولاً –زوجته وأبنائه– فالأهل هنا هم الزوجة والأولاد، وهم آخر من يفر منهم الإنسان يوم الحساب؛ لشدة التصاقه بهم وانتمائه إليهم.

أما برّ الإنسان بوالديه والحث على طاعتهما وخفض جناح الذل لهما، فهو سداد لبعض الدين الذي يطوق عنق الإنسان من رحمة أبويه به وهو صغير، ورعايتهما له حين كان ضعيفاً، ولكن الأبوين ليسا حب الإنسان الأول ومحط اهتمامه، بدليل عقوق آلاف الأبناء لآبائهم وتنكرهم لفضل أهليهم. فسبحان الله العظيم!!.

وفي تأمل لنظام الترتيب والتقديم والتأخير في مراتب الحب والإيثار، نجد نظاماً آخر يعكس هذه المراتب حيث تتقدم فيه المرأة على الابن، عكس ما تقدم من حديث عن هذه المراتب وذلك في قوله تعالى: (زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ)[2].

حيث تظهر المرأة مقدمة على البنين، وقناطير الذهب والفضة، يقول العلوي في (طرازه) مفسراً هذا التقديم:

"فلما بدأ بذكر الحب والمحبوب مختلف المراتب، فالتفاوت في الدرجات اقتضت حكمته سبحانه وتعالى تقديم الأهم فالأهم من المحبوبات، فقدم النساء على البنين؛ لما يظهر فيهن من قوة الشهوة وإثارتهن على المحبوب، وقدّم البنين على الأموال لتمكنهم في النفوس، واختلاط محبتهم بالأفئدة، وهكذا جاء الكلام في سائر المحبوبات، فالنساء أحب من البنين، والبنون أحبّ من الأموال، والذهب أحبّ من الفضة... وهكذا"[3].

---

[1] عبس، (34–36).

[2] آل عمران،(14).

[3] ينظر: العلوي، الطراز، ج2، ص62– 63.

فتقديم اللفظ أو المعنى في موضع وتأخره في موضع آخر، إنّما يكون لغاية بلاغية، ومعنى عظيم يندّ عن معرفة عظيمة بطبيعة النفس البشرية، وما تحمله من عواطف ورغابات... وذلك مصداقاً لقوله تعالى: (أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ)[1].

التقديم للفضل والشرف:

يجد المتأمل في كتاب الله والمدقق في رتب الألفاظ أنّ دافع الفضل والشرف قد يكون هو المحرك لنقل الألفاظ وترتيبها، حيث يتقدم الأنبياء على الصديقين والشهداء والصالحين، لفضلهم ورتبتهم، كما يتقدم ذكر الله على هؤلاء جميعاً لفضله سبحانه وعلو مرتبته من ذلك: (وَمَن يُطِعِ اللّهَ وَالرَّسُولَ فَأُوْلَـئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاء وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا)[2].

وقد يلمح الدارس في الآية نفسها سبباً آخر للتقديم والتأخير، وهو التدرج من القلة إلى الكثرة، يقول فاضل السامرائي: "... فقدّم الله على الرسول ثم بدأ بالتدرج من القلة إلى الكثرة، بحيث تفاضلهم أي من الأفضل إلى الفاضل، فبدأ بالنبيين وهم أقل الخلق، ثم الصديقين وهم أكثر، ثم الشهداء ثم الصالحين، ولا شك أنّ أفضل الخلق هم أقل الخلق، إذ كلما ترقى الناس في الفضل قل صنفهم"[3].

وفي قول السامرائي: "كلما ترقى الناس في الفضل قل صنفهم" كثير من التوفيق، وخلاصة حكيمة، تعرف بمخالطة الناس ومعاملاتهم. وقد أشار القرآن الكريم إلى هذه الحقيقة في كثير من المواضع كقوله تعالى: (وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ)[4]. (وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يُؤْمِنُونَ)[5]. (وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَشْكُرُونَ)[6]. وغيرها... .

---

[1] الملك، (15).

[2] النساء، (69).

[3] السامرائي، التعبير القرآني، ص55.

[4] يوسف، (21).

[5] هود، (17).

[6] يوسف، (38).

ومن المواضع الدالة على التقديم للفضل والشرف، الآيات الدالة على شرف الرسالةعلى النبوة كقوله تعالى: (وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ...)[1]؛ لأن الرسول أفضل من النبي، فالرسول مكلف بالتبليغ، والنبي غير مكلّف بذلك، كذلك تقديم الحرية على العبودية، كقوله تعالى: (الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ)[2] ولا ينكر أحد فضل الحرية على العبودية، ومنها فضل المؤمنين على من سواهم كقوله تعالى: (وَإِن كَانَ طَائِفَةٌ مِّنكُمْ آمَنُواْ بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ وَطَائِفَةٌ لَّمْ يُؤْمِنُواْ)[3].

وقد ورد في بدائع الفوائد تحليل جميل لآية الوضوء وأركانه، فذهب صاحب البدائع إلى أن تقدم الأعضاء بعضها على بعض في الذكر إنّما جاء بالفضل والشرف. وذلك في قوله تعالى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلاَةِ فاغْسِلُواْ وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُواْ بِرُؤُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ)[4].

يقول ابن القيم في ترتيب ذكر الأركان السابقة:

فقد جاء في الفوائد أنّ هذا الترتيب جاء واجباً على رأي الشافعي وأحمد ومن وافقهما، فالآية عندهم اقتضت التقديم وجوباً لقرائن عدّة:

الأول: أنّه أدخل ممسوحاً بين مغسولين، وقطع النظير عن نظيره، ولو أريد الجمع المطلق لكان المناسب أن يذكر المغسولات مُتَّسِقة في النظم، والممسوح بعدها، فلما عدل إلى ذلك، دلَّ على وجوب ترتيبها على الوجه الذي ذكره الله تعالى.

الثاني: أنّ هذه الأفعال هي أجزاء فعل واحد مأمور به، وهو الوضوء، فدخلت الواو عاطفة لأجزائه بعضها على بعض، والفعل الواحد لا بُدَّ من ارتباط أجزائه بعضها ببعض، فدخلت الواو بين الأجزاء للربط، فأفادت الترتيب.

---

[1] الحج، (52).

[2] البقرة، (178).

[3] الأعراف،(87).

[4] المائدة،(6).

الثالث: أنّ الله –سبحانه وتعالى– بدأ بالوجه دون سائر الأعضاء خاصة؛ وجب مراعاتها، وأن لا تلغى وتهدر فيهدر ما أعده الله ويؤخر ما قدمه الله[1].

وفي السياق نفسه يتابع: والأرجل معطوفة على الأيدي، وليس كما يظن بعض الناس أنّها معطوفة على الرؤوس، وإلّا كان المسح على الرجلين أولى من الغسل، وليس معطوفة على الأوجه، لأنّ الوجه أشرف الأعضاء التي ذكرت.

وفي دراسة للسيوطي في (معترك الأقران) يذهب إلى أنّ تقديم الحي على الميت والخيل على غيرها من المركوبات، إنّما هو من باب الفضل والشرف[2]، وذلك في قوله تعالى: (يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ)[3] فالحيّ أفضل من الميت. وفي قوله تعالى: (وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا)[4]، فالخيل أشرف المركوبات، يليها البغال وتليها الحمير، وهو كما نرى باب كبير، يمكن من خلاله تقدير المخلوقات وشرفها في الخلق والتقديم.

السبق بالطبع والذات:

ويمكن التمثيل على ذلك بترتيب الأعداد طبقاً لقيمتها، فالعدد ذو القيمة الأقل يتقدم على ذي القيمة الأكبر، من ذلك قوله تعالى: (مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُو رَابِعُهُمْ)[5]، فالثلاثة بذاتها تسبق الأربعة، والأربعة تسبق الخمسة، وهكذا، ومن ذلك أيضاً: (الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا أُولِي أَجْنِحَةٍ مَّثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ)[6] فتم الترتيب للأعداد طبقاً لقيمتها وتصاعدها.

---

(1) الجوزية، ابن القيم، الإمام أبو عبدالله محمد بن أبي بكر بن أيوب، بدائع الفوائد، تحقيق: علي بن محمد العمران، إشراف بكر بن عبدالله أبو زيد، دار علم الفوائد، ط2، 1427هـ، ج1، ص109.

(2) السيوطي، المعترك، ج1، ص131.

(3) الروم، (19).

(4) النحل،(8).

(5) المجادلة،(7).

(6) فاطر،(1).

وقد عدَّ الدارسون تقدم ذكر لفظ الجلالة على ما سواه من باب التقدم بالطبع والذات، فالله متقدم بذاته قبل أن يكون تقدمه من باب العظمة والإجلال، من ذلك قوله تعالى: (إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ)[1] فالله سبحانه عظيم دون تقديم؛ لأنّ عظمته ظاهرة جلية[2].

السبق في الإيجاد:

هو السبق زمانياً، فما وجد أولاً يتقدم على ما سواه، من ذلك قوله تعالى: (اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ)[3]، فقدم الملائكة؛ لأنهم أسبق في الوجود، رغم أنّ بعض البشر قد يتقدمون بالفضل على الملائكة، وعلى رأسهم الرسول محمد -ﷺ-.

ومن ذلك قوله تعالى: (يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ...)[4] فقدم ذكر الأزواج؛ لأنّهنّ أسبق في الوجود من البنات[5].

ومن ذلك أيضاً قوله تعالى: (اللّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لاَ تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلاَ نَوْمٌ)[6]، فتقدم السِّنة (وهي النعاس)؛ لإنّ السِّنة تسبق النوم زمانياً.

ومن هذا االتقديم قوله تعالى: (قُلْ هُوَ الرَّحْمَنُ آمَنَّا بِهِ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا)[7] فقدم الفعل (آمنا) (آمنا) على الجار والمجرور (به) وأخر (توكلنا) على الجار والمجرور (عليه)[8] وذلك وذلك أنّ " الإيمان لما لم يكن منحصراً في الإيمان بالله بل لابدّ معه من رسله وملائكته وكتبه واليوم الآخر وغيره مما يتوقف صحة الإيمان عليه، بخلاف التوكل فإنه لايكون إلاّ على الله وحده؛ لتفرده بالقدرة والعلم القديمين الباقيين، قدم الجار

---

[1] الأحزاب، (56).

[2] أبو القاسم، علي، بلاغة التقديم والتأخير في القرآن الكريم، ج1، ص190.

[3] الحج،(75).

[4] الأحزاب،(56).

[5] الزركشي، البرهان، ج3، ص239.

[6] البقرة، (255).

[7] الرحمن (29) .

[8] السامرائي، التعبير القرآني، ص50 .

والمجرور فيه؛ ليؤذن باختصاص التوكل من العبد إلى الله دون غيره ؛ لأنّ غيره لايملك ضراً ولا نفعاً فيتوكل عليه"[1].

كيف فات الزركشي والرازي والسامرائي، أن يشيروا إلى تقديمين في الآية السابقة دون الإشارة إلى التقديم الثالث، فقد أشاروا إلى تقديم الفعل على متعلقه في قوله تعالى: (آمنا به) وقوله في حالة التأخير: (عليه توكلنا)، واغفلوا تقديم الإيمان على التوكل؛ وذلك لأنّ الإيمان بالله مطلوب أولاً ثم التوكل ثانياً، وإلاّ لقال: (قل هو الرحمن عليه توكلنا وآمنا به) وهذا من جماليات التقديم والتأخير في القرآن الكريم.

السبق بالمكان:

وقد عالج هذا الغرض الزركشي في (البرهان) عندما عرض لقوله تعالى: (وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ)[2]. يقول: "فإن الغالب أنّ الذين يأتون رجالاً من مكان قريب، والذين يأتون على الضامر من البعيد"[3]، وقد جعله ابن عباس من باب الفاضل على المفضول، فقد روي عنه قوله: "وددت أنّي لو حججت راجلاً؛ لأنّ الله قدّم الرجالة على الركبان في القرآن"[4].

وكما تراعي الآيات الكريمة موضوع السبق المكاني، والسبق في الوجود تراعي السبق في التكليف، فما يكلف به الإنسان أولاً يذكر أولاً، لا سيما في مجال الشعائر، من ذلك قوله تعالى: (إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِن شَعَائِرِ اللَّهِ)[5]. فقد جاء تقديم الصفا على المروة؛ لأنّ السَّعي في أداء مناسك الحج والعمرة يبدأ من الصفا.

ومن جميل التقاديم في القرآن الكريم، ما دل على أهمية الحواس والنعم في حياة الإنسان، فقد دار حديث عند المفسرين لمحاولة فهم تقديم السمع على البصر في كثير

---

(1) الزركشي، البرهان، ج2، ص421 . وينظر: الرازي، التفسير الكبير، ج30، ص76 .

(2) الحج،(27).

(3) الزركشي، البرهان، ج3،ص 249.

(4) الجوزية، ابن القيم، بدائع الفوائد، ج1، ص109.

(5) البقرة، (157).

من الآيات القرآنية من ذلك: (وَهُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ)[1] (إِنَّهُهُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ)[2] أي الله سبحانه وتعالى (إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا)[3] أي الإنسان (وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْلَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا)[4].

والصُم هم فاقدو السمع، والعُمي فاقدو البصر، ويذهب الدارسون إلى أنّ هذا الترتيب دال على أهمية السمع وتقدمه على البصر ومن تعليلاتهم لهذا التقديم أنّ الله لم يبعث نبياً أصمَّ، ولكن النبي قد يكون أعمى[5]، كسيدنا يعقوب –عليه السلام– الذي عمي لشدة حزنه على فراق ابنه، وبذا لم يمنعه العمى من تبليغ الرسالة، كما ذهبوا إلى أنّ السمع عند تلقي الرسالة أفضل من البصر؛ لأنّ الأعمى يستطيع أن يفهم ويبلغ بخلاف الأصم[6]؛ ولذلك نجد من العميان علماء كباراً ومحاضرين ومصلحين.

ومن تعليلاتهم لهذا التقديم أنّ مدى السمع أقرب من مدى الرؤية، فقدم ذا المدى الأقرب متدرجاً من القصر إلى الطول[7]، ولذا قال تعالى مخاطباً موسى وهارون: (قَالَ لَا تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى)[8].

فقدم السمع؛ لأنّه يدل على القرب، فالذي يسمعك يكون في المسافة قريباً منك، بخلاف الذي يراك فإنه قد يكون بعيداً، وإن كان الله سبحانه لا يندّ عن سمعه شيء"[9]. شيء"[9].

---

[1] الشورى،(11).

[2] الإسراء،(1).

[3] الإنسان، (2).

[4] الفرقان، (73).

[5] السامرائي، التعبير القرآني، ص55.

[6] المرجع نفسه، ص56.

[7] السامرائي، التعبير القرآني، ص56.

[8] طه، (46).

[9] السامرائي، التعبير القرآني، ص56.

كذلك تنبه الدارسون إلى تقدم ذكر صفاته سبحانه وتعالى بعضها على بعض الآخر، وخرجوا بتعليلات لطيفة لهذا التقديم، من ذلك تقدم ذكر العزة على الحكمة في قوله تعالى: (وَهُوَالْعَزِيزُالْحَكِيمُ)[1] فقالوا: لأنّه عزّ فحكم[2]. ولكن القوة تقدمت على العزة في موضع آخر في قوله تعالى: (إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ)[3] فقالوا: لأنّه قوي فعز[4]. وجميعها مواطن دقيقة لا يجوز المرور عليها دون توقف وتأمل!!

كذلك أورد المفسرون تعليلات لطيفة لورود ذكر فئات من الناس قبل غيرهم في القرآن الكريم، من ذلك قوله تعالى: (ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ)[5].

فقد جاء في الكشاف للزمخشري: "فإن قلت: لِمَ قُدم الظالم ثم المقتصد ثم السابق؟ قلت: للإيذان بكثرة الفاسقين وغلبتهم، وأنّ المقتصدين قليل بالإضافة إليهم، والسابقون أقل من القليل"[6].

فمثل هذه الملحوظات البلاغية تغني ثقافة القارئ، ومعرفته بحقيقة النفس البشرية وطبيعة الحياة الاجتماعية للبشر، ورفض الأكثرية للطاعة والانقياد لأمر الله!!.

ويقود الحديث عن طبائع الناس وتحليل القرآن لهذه الطبائع إلى إيراد ما قيل حول صفات الهمّازين والنمّامين المانعين للخير، وكيف تم ترتيب صفاتهم وذلك في قوله تعالى: (وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ(10)هَمَّازٍ مَّشَّاء بِنَمِيمٍ(11) مَنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ)[7].

فبدأ برتبة الهمّاز الذي يعيب الناس، وهذا لا يحتاج إلى مشي، ثم انتقل إلى مرتبة أبعد في الإيذاء، وهو المشي في النميمة، وبعدها انتقل إلى مرتبة أبعد في

---

[1] الحشر، (1).

[2] السيوطي، الإتقان، ج3، ص39.

[3] الحج، (74).

[4] السامرائي، التعبير القرآني، ص54.

[5] فاطر، (32).

[6] الزمخشري، الكشاف، ج3، ص613.

[7] القلم، (12).

الإيذاء وهو أن يمنع الخير عن الآخرين، ثم انتقل إلى مرتبة أكثر بعداً مما قبلها وهو الاعتداء، فإنّ منع الخير قد لا يصحبه اعتداء، أمّا العدوان فهو أشد المراتب المتقدمة إيذاء[1].

وجاء في بدائع الفوائد: "وأمّا تقدم همّاز على (مشاء بنميم) فالرتبة؛ لأنّ المشي مرتب على القعود في المكان، والهمّاز هو العيّاب؛ وذلك لا يفقتر إلى حركة وانتقال من موضعه بخلاف النّميم، وأمّا تقدم (مناع للخير) على (معتدٍ) فبالرتبة أيضاً؛ لأنّ المناع يمنع نفسه، والمعتدي يعتدي على غيره ونفسه قبل غيره"[2].

فهذه ملاحظ الدارسين، تعكس ذكاء وعمقاً في التأمل، عند تناولهم للآيات الكريمة، كما تتعدى الأسلوب البدائي في التفسير، الذي كان يقتصر على شرح المفردات أو مناسبة النص إلى أسلوب التأمل في مواقع المفردات، ومحاولة الخوض في فوائد تقديمها وتأخيرها، وما قد يحمله ذلك من مدلولات نفسية، أو فقهية أو علمية، ولشد ما نحن بحاجة إلى مزيد من هذه التأملات البلاغية والوقفات الجمالية!!.

---

[1] السامرائي، التعبير القرآني، ص56.

[2] الجوزية، ابن القيم، بدائع الفوائد، ج1، ص109.

الباب الثالث

سورة الإسراء

بسم اللّه الرحمن الرحيم

سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ (1) وَآتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ أَلاَّ تَتَّخِذُوا مِن دُونِي وَكِيلاً (2) ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا (3) وَقَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا (4) فَإِذَا جَاء وَعْدُ أُولاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَا أُوْلِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُواْ خِلاَلَ الدِّيَارِ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولاً (5) ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَاكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا (6) إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا فَإِذَا جَاء وَعْدُ الآخِرَةِ لِيَسُوؤُواْ وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُواْ الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُواْ مَا عَلَوْاْ تَتْبِيرًا (7) عَسَى رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا (8) إِنَّ هَـذَا الْقُرْآنَ يِهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا (9) وَأَنَّ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا (10) وَيَدْعُ الإِنسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءهُ بِالْخَيْرِ وَكَانَ الإِنسَانُ عَجُولاً (11) وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُواْ فَضْلاً مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُواْ عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلاً (12) وَكُلَّ إِنسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَآئِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا (13) اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا (14) مَّنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَلاَ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخرى وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً (15) وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا (16) وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِن بَعْدِ نُوحٍ وَكَفَى بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا (17) مَّن كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاء لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلاهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا (18) وَمَنْ أَرَادَ الآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا (19)

كُلاًّ نُّمِدُّ هَـؤُلاء وَهَـؤُلاء مِنْ عَطَاء رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاء رَبِّكَ مَحْظُورًا (20) انظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا
بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَلَلآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلاً (21) لاَّ تَجْعَل مَعَ اللّهِ إِلَـهًا آخَرَ فَتَقْعُدَ
مَذْمُومًا مَّخْذُولاً (22) وَقَضَى رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُواْ إِلاَّ إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الْكِبَرَ
أَحَدُهُمَا أَوْ كِلاَهُمَا فَلاَ تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلاَ تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلاً كَرِيمًا (23) وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ
الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا (24) رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ إِن تَكُونُواْ
صَالِحِينَ فَإِنَّهُ كَانَ لِلأَوَّابِينَ غَفُورًا (25) وَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلاَ تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا
(26) إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُواْ إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا (27) وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ابْتِغَاء
رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُل لَّهُمْ قَوْلاً مَّيْسُورًا (28) وَلاَ تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلاَ تَبْسُطْهَا
كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا (29) إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاء وَيَقْدِرُ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ
خَبِيرًا بَصِيرًا (30) وَلاَ تَقْتُلُواْ أَوْلادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُم إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْءًا كَبِيرًا
(31) وَلاَ تَقْرَبُواْ الزِّنَى إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاء سَبِيلاً (32) وَلاَ تَقْتُلُواْ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللّهُ إِلاَّ
بِالْحَقِّ وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَانًا فَلاَ يُسْرِف فِّي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنْصُورًا (33) وَلاَ
تَقْرَبُواْ مَالَ الْيَتِيمِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُواْ بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْؤُولاً (34)
وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذا كِلْتُمْ وَزِنُواْ بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً (35) وَلاَ تَقْفُ مَا لَيْسَ
لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً (36) وَلاَ تَمْشِ فِي الأرض مَرَحًا
إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الأرض وَلَن تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولاً (37) كُلُّ ذَلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِندَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا (38)
ذَلِكَ مِمَّا أَوْحَى إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ وَلاَ تَجْعَلْ مَعَ اللّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتُلْقَى فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدْحُورًا
(39) فَأَصْفَاكُمْ رَبُّكُم بِالْبَنِينَ وَاتَّخَذَ مِنَ الْمَلآئِكَةِ إِنَاثًا إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلاً عَظِيمًا (40) وَلَقَدْ صَرَّفْنَا
فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِيَذَّكَّرُواْ وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلاَّ نُفُورًا (41) قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لاَّبْتَغَوْاْ إِلَى
ذِي الْعَرْشِ سَبِيلاً (42) سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا (43) تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ

وَالأرض وَمَن فِيهِنَّ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا (44) وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا (45) وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ وَلَّوْاْ عَلَى أَدْبَارِهِمْ نُفُورًا (46) نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَى إِذْ يَقُولُ الظَّالِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلاَّ رَجُلاً مَّسْحُورًا (47) انظُرْ كَيْفَ ضَرَبُواْ لَكَ الأَمْثَالَ فَضَلُّواْ فَلاَ يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلاً (48) وَقَالُواْ أَئِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا (49) قُلْ كُونُواْ حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا (50) أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُؤُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَى هُوَ قُلْ عَسَى أَن يَكُونَ قَرِيبًا (51) يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلاَّ قَلِيلاً (52) وَقُل لِّعِبَادِي يَقُولُواْ الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلإِنسَانِ عَدُوًّا مُّبِينًا (53) رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ إِن يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ أَوْ إِن يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلاً (54) وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالأرض وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا (55) قُلِ ادْعُواْ الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِ فَلاَ يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنكُمْ وَلاَ تَحْوِيلاً (56) أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا (57) وَإِن مِّن قَرْيَةٍ إِلاَّ نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا (58) وَمَا مَنَعَنَا أَن نُّرْسِلَ بِالآيَاتِ إِلاَّ أَن كَذَّبَ بِهَا الأَوَّلُونَ وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُواْ بِهَا وَمَا نُرْسِلُ بِالآيَاتِ إِلاَّ تَخْوِيفًا (59) وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلاَّ فِتْنَةً لِّلنَّاسِ وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلاَّ طُغْيَانًا كَبِيرًا (60) وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلآئِكَةِ اسْجُدُواْ لآدَمَ فَسَجَدُواْ إِلاَّ إِبْلِيسَ قَالَ أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا (61) قَالَ أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلاَّ قَلِيلاً (62) قَالَ اذْهَبْ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمْ جَزَاء مَّوْفُورًا (63) وَاسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ

عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِي الأَمْوَالِ وَالأَوْلادِ وَعِدْهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلاَّ غُرُورًا (64) إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفَى بِرَبِّكَ وَكِيلاً (65) رَّبُّكُمُ الَّذِي يُزْجِي لَكُمُ الْفُلْكَ فِي الْبَحْرِ لِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِ إِنَّهُ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا (66) وَإِذَا مَسَّكُمُ الْضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلاَّ إِيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّاكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الإِنْسَانُ كَفُورًا (67) أَفَأَمِنتُمْ أَن يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ الْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ثُمَّ لاَ تَجِدُواْ لَكُمْ وَكِيلاً (68) أَمْ أَمِنتُمْ أَن يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخرى فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفا مِّنَ الرِّيحِ فَيُغْرِقَكُم بِمَا كَفَرْتُمْ ثُمَّ لاَ تَجِدُواْ لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِ تَبِيعًا (69) وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً (70) يَوْمَ نَدْعُو كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ فَمَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَأُوْلَئِكَ يَقْرَؤُونَ كِتَابَهُمْ وَلاَ يُظْلَمُونَ فَتِيلاً (71) وَمَن كَانَ فِي هَـذِهِ أَعْمَى فَهُوَ فِي الآخِرَةِ أَعْمَى وَأَضَلُّ سَبِيلاً (72) وَإِن كَادُواْ لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ وَإِذًا لاَّتَّخَذُوكَ خَلِيلاً (73) وَلَوْلاَ أَن ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلاً (74) إِذاً لَّأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لاَ تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا (75) وَإِن كَادُواْ لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ الأرض لِيُخْرِجوكَ مِنْهَا وَإِذًا لاَّ يَلْبَثُونَ خِلافَكَ إِلاَّ قَلِيلاً (76) سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا وَلاَ تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلاً (77) أَقِمِ الصَّلاَةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا (78) وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَّكَ عَسَى أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا (79) وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلْطَانًا نَّصِيرًا (80) وَقُلْ جَاء الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا (81) وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاء وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلاَ يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إَلاَّ خَسَارًا (82) وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الإِنسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَى بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ كَانَ يَؤُوسًا (83) قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلَتِهِ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَى سَبِيلاً (84) وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُم مِّن الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً (85) وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ثُمَّ لاَ تَجِدُ لَكَ بِهِ عَلَيْنَا وَكِيلاً (86) إِلاَّ رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ إِنَّ فَضْلَهُ

كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا (87) قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَن يَأْتُواْ بِمِثْلِ هَـذَا الْقُرْآنِ لاَ يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ
وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا (88) وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَـذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ
إِلاَّ كُفُورًا (89) وَقَالُواْ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الأرض يَنبُوعًا (90) أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن
نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الأَنْهَارَ خِلالَهَا تَفْجِيرًا (91) أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاء كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ
بِاللّهِ وَالْمَلآئِكَةِ قَبِيلاً (92) أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَى فِي السَّمَاء وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى
تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَّقْرَؤُهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلاَّ بَشَرًا رَّسُولاً (93) وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَن يُؤْمِنُواْ إِذْ
جَاءهُمُ الْهُدَى إِلاَّ أَن قَالُواْ أَبَعَثَ اللّهُ بَشَرًا رَّسُولاً (94) قُل لَّوْ كَانَ فِي الأرض مَلآئِكَةٌ يَمْشُونَ
مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاء مَلَكًا رَّسُولاً (95) قُلْ كَفَى بِاللّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ
خَبِيرًا بَصِيرًا (96) وَمَن يَهْدِ اللّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَاء مِن دُونِهِ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ
الْقِيَامَةِ عَلَى وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا مَّأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا (97) ذَلِكَ
جَزَآؤُهُم بِأَنَّهُمْ كَفَرُواْ بِآيَاتِنَا وَقَالُواْ أَئِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا (98) أَوَلَمْ يَرَوْاْ
أَنَّ اللّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأرض قَادِرٌ عَلَى أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلاً لاَّ رَيْبَ فِيهِ فَأَبَى
الظَّالِمُونَ إِلاَّ كُفُورًا (99) قُل لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَآئِنَ رَحْمَةِ رَبِّي إِذًا لَّأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الإِنفَاقِ وَكَانَ
الإِنسَانُ قَتُورًا (100) وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ فَاسْأَلْ بَنِي إِسْرَائِيلَ إِذْ جَاءهُمْ فَقَالَ لَهُ
فِرْعَوْنُ إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا مُوسَى مَسْحُورًا (101) قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنزَلَ هَـؤُلاء إِلاَّ رَبُّ السَّمَاوَاتِ
وَالأرض بَصَآئِرَ وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا فِرْعَوْنُ مَثْبُورًا (102) فَأَرَادَ أَن يَسْتَفِزَّهُم مِّنَ الأرض فَأَغْرَقْنَاهُ وَمَن
مَّعَهُ جَمِيعًا (103) وَقُلْنَا مِن بَعْدِهِ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ اسْكُنُواْ الأرض فَإِذَا جَاء وَعْدُ الآخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ
لَفِيفًا (104) وَبِالْحَقِّ أَنزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا (105) وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ
عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنزِيلاً (106) قُلْ آمِنُواْ بِهِ أَوْ لاَ تُؤْمِنُواْ إِنَّ الَّذِينَ أُوتُواْ الْعِلْمَ مِن قَبْلِهِ
إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلأذْقَانِ سُجَّدًا (107) وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولاً

(108)وَيَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا (109) قُلِ ادْعُواْ اللّهَ أَوِ ادْعُواْ الرَّحْمَنَ أَيًّا مَّا تَدْعُواْ فَلَهُ الأَسْمَاء الْحُسْنَى وَلاَ تَجْهَرْ بِصَلاَتِكَ وَلاَ تُخَافِتْ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلاً (110) وَقُلِ الْحَمْدُ لِلّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَم يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُ وَلِيٌّ مِّنَ الذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا(111).

بين يدي سورة الإسراء

تُعد سورة الإسراء من السور الإيقاعية المؤثرة في مجال معالجة الصراعات الدينية التي نعيشها اليوم، وعاشها قبلنا أصحاب الديانات السماوية في العصور القديمة، بل تحكي قصة الصراع بين الإنسان والشيطان، الذي أجج هذه الصراعات واستفزّ البشر بكل ما أوتي من قوة ليحيد بهم عن الطريق الصحيح، فجاء قوله تعالى مخاطباً إياه: (وَاسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِي الأَمْوَالِ وَالأَوْلادِ وَعِدْهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلاَّ غُرُورًا)[1].

فمعركة البشر مع الشيطان لا نهاية لها، وستبقى سجالاً بينهما إلى قيام الساعة تستخدم فيها كل صنوف الأسلحة والمعدات والأساليب: الصوت، والجلبة، والخيل، والرِّجال، والاستيلاء على الأموال، والأولاد، والوعود الكاذبة (وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلاَّ غُرُورًا)[2].

هذا الإيقاع الحربي الوارد في الآية الكريمة، هو جزء من الإيقاعات الكثيرة التي تمثلها سورة الإسراء، ولعل أبرزها الإيقاع الخاص بذكر المسجد الأقصى، وما يدور حوله من صراع، في الماضي والحاضر والمستقبل (سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ)[3].

ولعله الإيقاع الأكبر في حياتنا المعاصرة، فإنّ أرض فلسطين تشهد اليوم صراعاً فوق هذه البقعة المقدسة، حيث تتجه جميع العيون وترنو إلى الصلاة فوق أرضها المباركة، من مسلمين ونصارى ويهود، ولا عجب في ذلك؛ فعلى أرضها اجتمع الأنبياء، وبهم التقى النبي -ﷺ- في رحلة الإسراء والمعراج، حيث صلى بهم ثم

---

[1] الإسراء، (64).

[2] الإسراء، (64).

[3] الإسراء، (1).

ارتقى في رحلته التاريخية إلى السماء، ليريه ربه من عجائب قدرته (إنّه هو السميع البصير).

فالسورة تمثل وضعاً للنقاط على الحروف فيما يتعلق بهذا الصراع، وما يدّعيه اليهود من أحقية بهذه البقعة المقدسة (القدس وبالتحديد مكان المسجد الأقصى) وادعائهم بأنّه مقام فوق الهيكل (هيكل سليمان عليه السلام) فعاثوا فيه فساداً كما عاثوا من قبل. وهم الآن وكما يظهر في جميع وسائل الإعلام، يقتلون الصغار قبل الكبار، ويمنعون فيه الصلاة، ويستخدمون الأسلحة والطلقات المطاطية والحية، فقتل عدد كبير منهم على مرأى العالم ومسمعه!!.

وقد أشارت السورة الكريمة إلى هذه الوقائع بقوله تعالى: (وَقَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الأرض مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا (4) فَإِذَا جَاء وَعْدُ أُولاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَا أُوْلِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُواْ خِلاَلَ الدِّيَارِ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولاً (5) ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَاكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا)[1]. فهو نص من القرآن على ما كان وما سوف يكون من بني إسرائيل إزاء بيت المقدس، وقد أشار المفسرون إلى معنى الإفسادين المذكورين في الآية الكريمة (لَتُفْسِدُنَّ فِي الأرض مَرَّتَيْنِ)[2] فكاد الإجماع يقع على أنّ الإفساد الأول هو قتلهم للأنبياء، وتعذيبهم إياهم، وإعراضهم عن الهدى، إلى أن بعث الله عليهم ملكاً من ملوك بابل يدعى (بختنصر) قتل منهم سبعين ألفاً، وسبى سبعين ألفاً[3].

أما الإفساد الثاني فقد اختلف حوله، ولكنّ المفسرين المحدثين يرون أنّه يشير إلى ما هم عليه اليوم من علو وغطرسة، وتحكم في مصير الشعوب، فهم الآن في

---

[1] الإسراء، (4-6).

[2] الإسراء، (4)

[3] ينظر: الشيرازي، ناصر مكارم، الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل، الأمير للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ط1، 1426هـ، 2005م، ج8، ص267.

ذروة مجدهم واستبدادهم. ودليل ذلك قوله تعالى: (وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا)[1]، كما أنّ قوله تعالى: (وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا)[2] دال على أنّ عقوبتهم لم تقع بعد، وأنّ البشرية تنتظر ما سوف يحيق بهم.

ومهما يكن من أمر، فإنّ السورة استهلت روائعها بذكر حادثة الإسراء، وتعني رحلة النبي –ﷺ– من بيت الله الحرام في مكة المكرمة، إلى بيت المقدس: (سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ)[3].

سرى يسري سارٍ[4]، فيقال: (فلان سارٍ) أي متيقظ قبل الفجر. مما يؤكد أنّ الرحلة تمت قبل طلوع الفجر.

أمّا المعراج فيقصد به الارتقاء نحو السماء من بيت المقدس بعد أن صلى – عليه السلام– بالأنبياء، فاشتهرت التسمية بعد ذلك بـ (الإسراء والمعراج).

وتعبير (أسرى) تعبير إيقاعي جميل، يوحي بمعنى القداسة وروعة الرحلة، وتكريم صاحبها، مما أضفى على الآية انسياباً وإيقاعاً رائعاً.

وجاء التعبير (أسرى) لاحقاً لكلمة (سبحان) ذات الإيقاع المماثل بعذوبته وقدسيته، فهو استهلال إنشائي، لا يفضي إلى الحقائق بقدر ما يثير مشاعر القارئ ويبعثه على التسبيح.

فالاستهلال فيه دعوة إلى التسبيح والتعظيم؛ لأنّ رحلة الإسراء تفوق قدرة البشر على تصورها وتحليلها، وما كان فوق قدرة البشر على التفكير كان أدعى إلى التعظيم والتسبيح.

---

(1) الإسراء، (4).

(2) الإسراء، (8).

(3) الإسراء، (1).

(4) ينظر: ابن منظور، لسان العرب، مادة (سرى)، يعني السير في الليل، قد يكون ذلك في أول الليل، وقد يكون في وسطه وقد يكون في آخره، ويعبّر الناس اليوم عن هذا المعنى دالين به على النهوض المبكر قبيل الفجر.

وقد أثارت الحادثة التي اختلف المفسرون في تحديد تأريخها، فحصروا تاريخها ما بين السنة الثانية للبعثة إلى الثانية عشرة منها[1] أي قبل الهجرة النبوية بعام، أثارت تساؤلات كثيرة حول ماهيتها، وكيفية وقوعها. وهل كان إسراء النبي -ﷺ- بكليّته (أي بجسده) أم بروحه (في الحلم)؟ بل كانت سبباً في تكذيب كثير ممن حوله -ﷺ- نظراً لإعجازها وعجائبها. إلا أنّ الله ثبت النبي بالقول والصدق، وخلّد ذكرها بالوحي والقرآن، ونصّ على صدقه فقال: (وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى(1) مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى(2)وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَى(3) إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى)[2].

وقد شاهد النبي برفقة جبريل -عليه السلام- من آيات ربه الكبرى، فتنقل بين السموات، والتقى بساكنيها من البشر والأنبياء، وفي رحلته فرضت الصلوات الخمس، وكان أبرز ما وقع له -ﷺ- اقترابه من الذات الإلهية -دون أن يراها- فكان قاب قوسين من ربه أو أدنى، قال تعالى في إشارة لهذه الحادثة: (ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى(8)فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى)[3]. فرؤية الله سبحانه تعذرت حتى على الأنبياء وحين طلب موسى -عليه السلام- من الله سبحانه أن ينظر إليه خاطبه قائلاً: (قَالَ لَن تَرَانِي وَلَكِنِ انظُرْإِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ موسَى صَعِقًا)[4].

والمتأمل في النص القرآني يعلم أنّ هذا الإسراء قد تم بجسد النبي وروحه، أي بكليّته -ﷺ- لقوله تعالى: (الَّذِيأَسْرَى بِعَبْدِهِ) فالعبد تشمل الإنسان جميعه جسده وروحه؛ كي لا يذهب الذهن إلى قضية (الرؤيا والحلم) ولو كانت الرحلة حلماً ورؤيا لما اقتضت قوله تعالى (سبحان) التي تفيد التعظيم والتقديس والتنزيه. فما من حلم يستحق هذا الإجلال والتوقف!!

---

[1] ينظر: الآلوسي، شهاب الدين السيد محمود البغدادي، روح المعاني تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، (د.ط)، (د.ت)، ج15، ص6.

[2] النجم، (1-4).

[3] النجم، (8-9).

[4] الأعراف، (143).

وقد وُصف النبي (بالعبد) رغم علو منزلته؛ لئلا يذهب الذاهبون مذهباً آخر، فيألهون النبي، أو يضفون عليه صفة تخلق في نفوسهم معنى الشرك، كما فُعل بالمسيح –عليه السلام– حين وصف بأنه ابن الله. وقد حذّرت سورة الإسراء من هذه النظرة وهذه الرؤية، فبدأت بهذا الأمر، وانتهت به في قوله تعالى في آخر السورة: (وَقُلِ الْحَمْدُ لِلّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَم يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُ وَلِيٌّ مِّنَ الذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا)[1].

وترمز رحلة النبي –ﷺ– في رحلة الإسراء والمعراج إلى تلاقي الأديان السماوية، ووحدتها فجميعها من مصدر واحد وهو الوحي الإلهي، كما يرمز التقاء النبي –ﷺ– بالأنبياء في المسجد الأقصى، وصلاته بهم إلى اتحاد الأديان السماوية بالإسلام آخر الزمان.

وقد قُدّم ذكر المسجد الحرام على المسجد الأقصى في قوله تعالى: (مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَى) لأنّ مكة –شرفها الله– مكان التقاء المسلمين من جميع أنحاء العالم، ومحجهم ونقطة انطلاقهم، كما أنّ المسجد الأقصى مكان التقاء الأنبياء وارتقائهم، فهي معالم في الطريق لمن أراد العبور من الدنيا إلى الآخرة، يبدأ بالعبادات والقربى إلى الله، وينتهي بالارتقاء والسمو. فرمزية الرحلة واضحة لمن تأمل وأرجع فيها النظر.

سورة الإسراء ومسمياتها:

تحمل هذه السورة العظيمة غير تسمية اشتهرت بها، فهي (الإسراء) إشارة إلى الرحلة العظيمة التي قام بها النبي –ﷺ– من مكة إلى بيت المقدس، وهي سورة (بني إسرائيل) نظراً لإشارتها إلى إفساد بني إسرائيل مرتين، وعتوهم عن أمر ربهم، كما ورد اسمها في بعض الروايات على أنها سورة (سبحان)" والمقصود بها الإقبال على الله

---

[1] الإسراء، (111).

وحده، وخلع كل ماسواه، لأنّه وحده المالك لتفاصيل الأمور"[1]. وأجملها تسمية (الإسراء) لما في اللفظ من إيقاع وإيحاء بالقداسة.

الوحدة الموضوعية في السورة:

تتعدد الموضوعات الدينية التي تضمنتها سورة الإسراء، وتشكل زخماً هائلاً من التوجيهات والعظات والإشارات، ما يقارب الأربعين موضوعاً، مما يجعل القارئ يتساءل عن الوحدة الموضوعية التي تربط كل هذه التوجيهات، وهذا ذكر لأبرز موضوعاتها:

1. ذكر معجزة الإسراء وتحديد مكانها.
2. الإشارة إلى بني إسرائيل وإفسادهم في الأرض مرتين.
3. إعطاء بني إسرائيل فرصة للإصلاح، ثم الإشارة إلى عدم استغلالها (وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا) (فَإِذَا جَاء وَعْدُ الآخِرَةِ لِيَسُوؤُواْ وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُواْ الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُواْ مَا عَلَوْاْ تَتْبِيرًا)[2].
4. الإشارة إلى عظمة القرآن وهدايته للإنسان كما كانت التوراة من قبل.
5. الإشارة إلى طبيعة الإنسان، ودعائه بالشر قبل الخير، لجهله وعجلته.
6. تحميل الإنسان مسؤولية عمله.
7. الإشارة إلى سنة الله في هلاك القرى بعد فسادها.
8. النص على أنّ الله يعطي الدنيا لمن يريد، والآخرة لمن يريد، لكن الآخرة أكبر درجات وأكبر تفضيلا.
9. توجيه الإنسان إلى ما من شأنه نجاح حياته وفوزه بالآخرة، ويبدأ ذلك بالتوحيد، ثم بر الوالدين، والإحسان إلى ذوي القربى والمساكين وابن السبيل، واجتناب التبذير والإسراف في النفقات، وعدم قتل الأولاد خوف الفقر، والنهي عن الزنا وقتل النفس

---

[1] البقاعي، إبراهيم بن عمر بن حسن الرباط بن علي بن أبي بكر(ت885هـ)، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، تحقيق: محمد عمران الأعظمي، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة ، ط1، 1397هـ-1977م، ج11،ص286 .

[2] الإسراء، (7).

التي حرم الله إلا بالحق، واجتناب أموال اليتامى والوفاء بالكيل والميزان، والتنديد بصفة الفضول (أي تدخل الإنسان فيما لا يعنيه) (وَلاَ تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ)[1]، وعدم التكبر على الخلق والمشي بخيلاء، والحث مرة أخرى على عدم الشرك بالله.

10. وصف المشركين ونفورهم من القرآن، وما جعل على قلوبهم من حُجب وأكنة.
11. فضح ما يدور في أفئدة المشركين من شكوك بصحة رسالة النبي -ﷺ- واتهامه بالسحر، واستبعادهم عودة الموتى إلى الحياة بعد استحالتهم إلى عظام.
12. ذكر قصة الملائكة وسجودهم لآدم، وعصيان الشيطان ورفضه للسجود.
13. ذكر وسائل الشيطان في إغواء بني آدم ومشاركتهم في الأولاد والأموال.
14. ذكر فضل الله على الناس في البر والبحر، وإنقاذهم من الغرق إذا دعوا الله بالنجاة.
15. الاستنكار على الناس الإحساس بالأمان (رغم شركهم) مع أنّ الله قادر على أن يخسف بهم البر، أو يرسل عليهم حاصباً أو قاصفاً من الريح.
16. ذكر ما سيحدث للإنسان يوم الحساب وتلقيه كتابه، فإن كان بيده اليمين نجا، ومن عمى في الدنيا عمي في الآخرة.
17. ذكر محاولة المشركين فتنة النبي وإقناعه بالافتراء على الله.
18. ذكر صعوبة حياة النبي، وأنّه كاد يركن إليهم لولا أن ثبته الله.
19. الدعوة إلى الصلاة على أوقاتها، وقراءة القرآن والتهجد والدعاء.
20. الإيذان بمجيء الحق وزهوق الباطل (إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا)[2].
21. الإشارة إلى ما في القرآن من شفاء ورحمة للناس.
22. الإشارة إلى طبيعة الإنسان، حين يعرض وينأى بجانبه عن الحق.
23. ذكر سؤال المشركين عن الروح والنص على أنّها من أمر الله.
24. تذكير النبي بنعم الله عليه، وأن لو ذهب الله به لذهب بالمشركين وراءه.

---

[1] الإسراء، (36).

[2] الإسراء، (81).

25. تحدي الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن، وأنّ فيه تصريف لكل شيء.
26. ذكر طلبات المشركين التعجيزية، وهي أن يفجر لهم النبي -ﷺ- ينبوعاً، أو أن يأتي بجنة من نخيل وعنب، أو يسقط عليهم كسفاً من السماء، أو أن يأتي بالله والملائكة، أو يكون له بيت من زخرف، أو يرقى في السماء، أو ينزل كتاباً يقرأونه.
27. التصريح بسبب عدم إيمان الناس بالأنبياء، وهو أنّهم بشر (قَالُواْ أَبَعَثَ اللّهُ بَشَرًا رَّسُولاً)[1].
28. النص على أنّ الهداية بيد الله، والضلال بيده، وليس للنبي من حيلة في تغيير ذلك (بعد تحذيرهم).
29. تعجب المشركين من قضية البعث (أَئِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا)[2].
30. محاورة المشركين ومحاولة لفتهم إلى خلق السموات والأرض علّهم يهتدون.
31. الإشارة إلى شُح الإنسان وبخله وأن لو ملك خزائن رحمة الله لبخل وقتّر.
32. سؤال بني إسرائيل عن موسى -عليه السلام- ومعجزاته وقصته مع فرعون، وذكر مصيره وغرقه، وما آل إليه بنو إسرائيل بعد ذلك، ومجيئهم آخر الزمان (لفيفاً).
33. التأكيد على أنّ القرآن حق ونزوله حق. ووصف خصائص القرآن، ونزوله مفرقاً ليقرأه الناس على مُكث.
34. وصف حال المؤمنين الذين يقرأون القرآن بخشوع، ويخرون إلى الأذقان وهم يبكون، ويسجدون، ويدعون الله.
35. الطلب إلى الناس أن يدعوا الله بأسمائه الحسنى -الله والرحمن- وعدم الجهر بالصلاة (أي رفع الصوت).

---

[1] الإسراء، (94).

[2] الإسراء، (49).

36. الانتهاء بالحمد، وإعلان الوحدانية، والتنديد بالشرك؛ لأنّ الله لا ولد له ولا شريك، ولا ولي من الذل، ودعوة إلى التكبير.

إنّ السورة على اختلاف موضوعاتها وتعدد توجيهاتها تمثل نسقاً إلهياً عظيماً منسجم العناصر، متكامل التركيب، لمن أنعم النظر وأطال التأمل؛ إنّها تمثل ملخصاً لحياة الإنسان، منذ أن يولد إلى أن يصبح كامل الأهلية لإعجاز الكون، واتخاذ موقف عقدي من الخالق، وكل ما هو غيبيّ إلى أن يموت ويستحيل رفاتاً وعظاماً، ثم يلقى وجه ربه للحساب والسؤال. بل نستطيع أن نذهب إلى أكثر من ذلك، وهو أنَّ السورة تعرض لمرحلة ما قبل ولادة الإنسان وهبوطه إلى الأرض حين وقف آدم –عليه السلام– قبالة الشيطان، فرفض هذا الأخير السجود له، لعدم إقراره بتميزه ومكانته عند الله، وهبوط آدم بدوره لعصيانه آوامر الله، وأكله من الشجرة المحرمة (وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى)[1] وشقائه بعد ذلك إلى قيام الساعة.

فالسورة تمثل توجيهاً رحيماً للبشرية جمعاء، بأنّ رحلة الشقاء على هذه الأرض يمكن أن تكون أسهل وطأة على الإنسان، وأيسر حملاً لو أنّه تمثل تعاليم ربه، وانتهى عن كامل ما من شأنه أن يشقيه، فجاءت التعليمات الإلهية تدق طبول التحذير:

لا تجعل مع الله إلها... وبالوالدين إحسانا... وآت ذا القربى حقه... ولا تبذروا تبذيرا... ولا تجعل يدك مغلولة... ولا تقتلوا أولادكم... ولا تقربوا الزنى... ولا تقتلوا النفس التي حرم الله... ولا تقربوا مال اليتيم... وأوفوا الكيل إذا كلتم... ولا تقف ما ليس لك به علم... ولا تمشِ في الأرض مرحاً...

إنّها منهاج حياة لإنقاذ البشرية الضائعة، التي تسير نحو الهاوية، ويأكل بعضها بعضاً... وصلاة النبي بالأنبياء في بيت المقدس، وهو رمزية لجميع الناس

---

[1] طه، (121).

باتباع دين محمد –ﷺ– قال تعالى: (إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الإِسْلاَمُ)[1] وقال تعالى: (وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ)[2].

وتأتي رحلة الإسراء والمعراج لتتسق مع هذه التعاليم وتنسجم معها. فكما أنّ محمداً نبي البشرية قد أُسري به من مكة إلى بيت المقدس، وصلى بالأنبياء ثم عرج إلى السموات، حيث اللقاء الأروع مع خالق السماء (فكان قاب قوسين أو أدنى)[3] وعاد بالرحمة والشفاعة والصلاة، ينبغي للبشرية أن تحذو حذوه، وتسري بأرواحها لا بأجسادها نحو خالقها، كل يوم خمس مرات، لما تحمله الصلاة من رمزية الارتقاء والسمو والإسراء، لا فرق بين عربي وأعجمي، ولا أبيض ولا أسود. وبذا يكون للقائه عليه السلام بالأنبياء في بيت المقدس رمزية التوحد والعالمية.

وثمة قضية هامّة لا بدَّ من الإشارة إليها، وهي ورود ذكر بني إسرائيل، وعقيدة النصارى في اتخاذهم المسيح إلهاً وتنديد القرآن في آخر السورة بهذا المعتقد، لقوله تعالى: (وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ)[4].

فقد جاءت السورة على ذكر هذا المعتقد لخطورته، فردت عليه بصورة لافتة في قوله تعالى: (سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً)[5] فوصفت النبي –ﷺ– بالعبودية، على عظم شأنه ومكانته، رداً على من اعتقد بألوهية الأنبياء، لا سيما المسيح عليه السلام، وبذا وضعت النقاط فوق الحروف، فيما يتعلق بديانة عظيمة تنتشر في جميع أنحاء العالم وهي (النصرانية).

---

[1] آل عمران، (19).

[2] الأنبياء، (107).

[3] النجم، (9).

[4] الإسراء، (111).

[5] الإسراء،(1).

كما أنّها نددت ببني إسرائيل، لما يلعبونه من دور في تعطيل هذا المنهاج الذي رسمته السورة، ويسعون في الأرض فساداً، مما يعطل دور جميع الشرائع في رسم السلام، وإسعاد البشرية، فجاء التفاوض معهم (وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا) للمعرفة المسبقة بأنّهم كلما عاهدوا الله باتباع الشريعة، وعدم الإفساد، عادوا ونكثوا العهد، فجاء الوعد بالنهاية (فَإِذَا جَاء وَعْدُ الآخِرَةِ لِيَسُوؤُواْ وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُواْ الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُواْ مَا عَلَوْا تَتْبِيرًا)[1].

أما الإشارة لبيت المقدس في مطلع السورة؛ فلأنّ الأحاديث الشريفة والروايات المأثورة، تشير جميعها إلى أنّ التقاء البشرية في أرض المقدس، والمواجهات الدينية واقعة لا محالة، لتعود الحقوق إلى أصحابها، وفي ذلك يقول النبي -ﷺ-: "لا تقوم الساعة حتى يقاتل المسلمون اليهود فيقتلهم المسلمون، حتى يختبئ اليهودي من وراء الحجر والشجر، فيقول الحجر والشجر: يا مسلم يا عبدالله هذا يهودي خلفي فتعال فاقتله إلّا الغرقد فإنّه من شجر اليهود"[2] رواه مسلم.

التقديم والتأخير في سورة الإسراء:

وقع اختيار هذا البحث على ظاهرة التقديم والتأخير في علم المعاني؛ لما تكشف عنه من دلالات بلاغية ولطائف تعبيرية، عبّر عنها عبد القاهر الجرجاني – كما سبق– وذكرنا بقوله: "لا يزال –أي التقديم والتأخير– يفترّ لك عن بديعة، ويفضي بك إلى لطيفة، ولا تزال ترى شعراً يروقك مسمعه، ويلطف لديك موقعه ثم تنظر فتجد سبب أن راقك، ولطف عندك، أن قُدم فيه شيء، وحوّل اللفظ من مكان إلى مكان"[3].

---

[1] الإسراء، (7).

[2] النيسابوري، مسلم بن الحجاج أبو الحسن القشيري، المسند الصحيح المختصر، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، (د.ط)، (د.ت)، صحيح مسلم، باب (لا تقوم الساعة حتى يمر الرجل)، ج4، ص2239.

[3] الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص137.

فإن راق التقديم والتأخير الجرجاني في الشعر، فإنّه في القرآن الكريم ألطف وأجل، وأحوج إلى التدبر والتأمل، لصدوره من لدن لطيف خبير، يعلم مواضع الكلم وتقليبه.

وقد وجدت في سورة الإسراء انتشاراً لهذه الظاهرة البلاغية كغيرها من السور، تملأ أرجاءها، بحيث لا تكاد تخلو آية (إلا ما قل) من تقديم أو تأخير في الألفاظ أو التراكيب، أو بين الآيات فيما بينها، ويمكن القول إنّ التقديم قد يقع في سورة الإسراء، ثم يظهر متأخراً في سورة أخرى، مما ستشير إليه الدراسة في مكانه إن شاء الله.

وقد تعددت أغراض التقديم والتأخير في سورة الإسراء، وتنوعت أشكاله وطالت معظم ما ذكره البلاغيون من أغراض كالتقديم للاهتمام، والتخصيص، والتدرج في ذكر الأقل إلى الأكثر، والأدنى إلى الأبعد، والمديح، والقصر، ومراعاة السبق الزماني والمكاني وغيرها.

فشكل بذلك أسلوبية داعمة لطريقة القرآن في التأثير والتبليغ في الدعوة، وفيما يأتي عرض لخصائص هذه الأسلوبية:

التقديم والتأخير في أشباه الجمل:

لقد غلبت على أسلوبية التقديم والتأخير في سورة الإسراء جريانها بين أشباه الجمل، محققة من خلالها مختلف الأغراض والغايات البلاغية، والمقصود بأشباه الجمل (الجار والجرور وشبه الجمل الظرفية) غير أنّ لشبه الجمل من الجار والمجرور نصيب الأسد في أداء هذه الأسلوبية من مثل:

(سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً)[1]

(وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ)[2]

(وَقَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الأرض)[3]

(بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَا)[1]

---

[1] الإسراء، (1).

[2] الإسراء، (2).

[3] الإسراء، (4).

(إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا)[2]

(وَكُلَّ إِنسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَآئِرَهُ فِي عُنُقِهِ)[3]

(مَّن كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا)[4]

(وَمَنْ أَرَادَ الآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا)[5]

(أَلاَّ تَعْبُدُواْ إِلاَّ إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا)[6]

(ذَلِكَ مِمَّا أَوْحَى إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ) [7]

(أَفَأَصْفَاكُمْ رَبُّكُم بِالْبَنِينَ)[8]

(فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُؤُوسَهُمْ)[9]

(وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ)[10]

(إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ)[11]

(إِلاَّ رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ إِنَّ فَضْلَهُ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا)[12]

(فَإِذَا جَاء وَعْدُ الآخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا)[1]

---

[1] الإسراء، (5).

[2] الإسراء، (5).

[3] الإسراء، (13).

[4] الإسراء، (18).

[5] الإسراء، (19).

[6] الإسراء، (23).

[7] الإسراء، (39).

[8] الإسراء، (40).

[9] الإسراء، (51).

[10] الإسراء، (64).

[11] الإسراء، (65).

[12] الإسراء، (87).

وهي كثيرة جداً، تصل إلى ما يقارب السبعين موضعاً، ومعظمها كما نرى مرتبطة بضمير المخاطب (عليكم/ لأنفسكم/ إليك/ لك/ عليك/ بكم/ بخيلك/ من ربك... إلخ).

أو دون ضمير مثل: (وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا)/ (أَفَأَصْفَاكُمْ رَبُّكُم بِالْبَنِينَ) وارتباطها بالضمائر له دلالة عظيمة، وهي اهتمام القرآن بالمخاطب والمخاطبين؛ لأنّهم محور الدعوة والتبليغ، ولأنّ للبشر على اختلاف مللهم عند الله مكانة، ولأجلهم سمّى نفسه الرحيم (نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ)[2].

ولنبدأ بالتقديم الأول في السورة (سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا) وكان مقتضى القول: (أسرى ليلاً بعبده) لتقدم المفعول فيه (ليلاً) رتبةً على شبه الجملة، ولكن التقديم (بعبده) جاء لغاية سامية، وهي الاهتمام بالنبي الكريم –ﷺ– فليس الإخبار عن وقت الرحلة هو غرض الآية وإلا لقال (ليلاً بعبده) ولكن الغرض الإخبار عن صاحبها، ولذا تقدم ذكره.

وقد نبّه الجرجاني من الاكتفاء بالقول: قُدِّم اللفظ للاهتمام؛ لأنّ الاهتمام ينبغي أن يكون لغاية أخرى هي السبب فيه فقال: "وقد وقع في ظنون الناس أنّه يكفي أن يقال أنّه قُدم للعناية، ولأنّ ذكره أهم، من غير أن يذكر من أين كانت تلك العناية، ولم كان أهم؟ ولتخيلهم ذلك قد صغر أمر التقديم والتأخير في نفوسهم، وهونوا الخطب فيه"[3].

فعبد القاهر يرى أنّ عدم التفات الناس للتقديم والتأخير، إنّما علته لاقتصارهم على تحديد غرض واحد له، وهو الاهتمام، فلذلك هان عندهم.

ويمكن القول إن تقديم الجار والمجرور (بعبده) على المفعول فيه (ليلاً) وقبل أن يكون اهتماماً بشخصه –ﷺ– إنّما وقع لغايات عظيمة منها:

---

[1] الإسراء، (104).

[2] الحجر، (49)

[3] الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص139.

1. النص على أنّ محمداً –ﷺ– ليس إلهاً أو ابناً لله كما ارتأت النصارى في المسيح –عليه السلام– وإنّما هو عبد من عباد الله، مخلص في عبادته مفضل عليهم. فتقديم اللفظ رسالة لأصحاب الديانات بأن ينتهوا عن الشرك ويتبعوا ديانة التوحيد.
2. ما يتعلق بالنبي نفسه –ﷺ– حتى لا ينتابه العجب والكبر[1].
3. كما يحمل هذا التقديم مدلولاً عظيماً آخر وهو أنّ النبي –ﷺ–قد أُسري به بكليّته، وقد أفادت (الباء) تأكيد التعدية للفعل (أسرى) فلا يظن أحد أنّ الإسراء كان محض خيال للنبي –ﷺ–وإنّما تم برعاية الله للنبي بكليته، وفي هذا دفع لمن شكك في وقوع الرحلة أو نسبها إلى الخيال أو (الرؤيا) أو أنّها تمت بروح الرسول دون جسده.

كما أنّ تأخير (ليلاً) وتنكيرها يدل على قصر الزمن الذي كان فيه الإسراء، والرجوع مع أنّه كان بين مكة وبيت المقدس مسيرة أربعين ليلة، وفي هذا بيان لعظمة الرحلة وإعجازها[2].

وبذلك نلتقي ومنذ الآية الأولى بمحور هام من محاور السورة، وهو التأكيد على الدعم الإلهي لهذا الدين، والتنديد بكل من يحاول النيل أو التشكيك بالمعجزة الإلهية، التي اعتلى من خلالها محمد –ﷺ– واعتلت بعلوه أمته جمعاء.

وعودة إلى أشباه الجمل، وما وقع فيها من تقديم وتأخير، فإنّ الضمائر تشير إلى حِدة الصراع بين الأديان وبني إسرائيل وإعراضهم عن الهدى والحق.

ففي قوله: (بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَا) تقدم الجار والمجرور –عليكم– لغاية الحصر – القصر– على بني إسرائيل بأنّهم هم الذين تعاد عليهم الكرة لا غيرهم.

بينما تأخر تعبير (عباداً لنا) ليقابل بدوره (بعثنا عليكم)، ليكون الطباق بين عليكم / لنا دالاً على التحدي بين المتكلم والمخاطب، فالجنود المرسلون (عباداً لنا)

---

[1] ينظر: التويجيري، شرف الدين، جعفر، الموسوعة القرآنية خصائص السور، مراجعة: أحمد حاطوم، ومحمد توفيق أبو علي، دار التقريب، بيروت، لبنان، ط1، 1420هـ، 1999م، ج5، ص91.

[2] ينظر: قطب، سيد، ظلال القرآن، بيروت، لبنان، ط7، 1391هـ، 1971م، ج 13، ص306–307.

وليسوا عبيداً للبشر، أو المال رفعاً من شأنهم، ونسبةً لهم إلى الله، كي لا يذهب الذهن إلى أن من سيقاتلون بني إسرائيل آخر الزمان فئات ظالمة، أو مشركة، أو من باب تسليط الظالم على من هو أظلم منه، ونسبة هؤلاء العباد لله يعني أنّهم سيبعثون بمشيئة الله للقتال "ويتسلطون تسليطاً كونياً جزائياً"[1].

وتزخر السورة بعشرات المواضع التي تشكل فيها أشباه الجمل من الجار والمجرور مادة للتقديم والتأخير، وتباين الغايات والدلالات، حتى نافت على السبعين موضعاً، وحتى يمكن القول إنّ أشباه الجمل من الجار والمجرور تشكل المادة الأولى للتقديم والتأخير لكثرة وقوعها. وقد يكون سبب ذلك ارتباط غالبيتها بالضمائر لنا / لكم/ علينا/ عليكم/ منكم/ منا/ فتكون الضمائر وسيلة لوصف الصراع بين المتكلم والمخاطب، لأنّ السورة برمتها تعكس صراعاً كبيراً بين الحق والباطل والمواجهة العقائدية.

أغراض التقديم والتأخير في أشباه الجمل:

سنلاحظ أنّ أشباه الجمل وإن دلت على الجار والمجرور، وشبه الجمل الظرفية، إلا أنّ تركيب الجار والمجرور، قد كَثُرَ في ميدان السورة بصورة لافتة كبيرة، حتى يمكن القول إنّه لا تكاد تخلو آية أو بضع آيات من هذا النسق التركيبي، ليشكل أسلوبية بارزة للحوار ومناقشة غير المخاطبين.

التخصيص:

وقد غلب غرض التخصيص (أو الاختصاص) على غيره من الأغراض في معرض ورود أشباه الجمل من الجار والمجرور. ولكنه تخصيص تكمن وراءه غايات أدق لا بدَّ من التنبه إليها، من ذلك:

التخصيص للأفضلية:

من ذلك قوله تعالى: (وَأَمْدَدْنَاكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا)[2]. فهو خطاب لبني إسرائيل قُدّم فيه ذكر الأموال على البنين، لأفضلية المال في الإعداد العسكري،

---

[1] السعدي، عبد الرحمن، تيسير الكريم الرحمن، ص461.

[2] الإسراء، (6).

وتقدمه على البنين، وهذا ما نلحظه اليوم من تفوق عسكري لبني إسرائيل، علته المال لا العدد، كما أنه سر تطورهم التقني وقوة تسلحهم[1].

التخصيص للاهتمام:

من ذلك قوله تعالى: (انظُرْ كَيْفَ ضَرَبُواْ لَكَ الأَمْثَالَ فَضَلُّواْ فَلاَ يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلاً)[2] فقد قدم الجار والمجرور (لك) على المفعول به (الأمثال) لغاية الاختصاص أي خصوك بضرب الأمثال، وذلك لأهمية النبي -ﷺ- في نظرهم، ولكنهم ضالون ظالمون كما تشير الآيات.

ومن ذلك أيضاً قوله تعالى: (فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُؤُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَى هُوَ قُلْ عَسَى أَن يَكُونَ قَرِيبًا)[3].

وهذا في معرض حوارهم مع النبي، وإنكارهم لليوم الآخر، وحين أُسقط في أيديهم، وغلب عليهم في الحوار، أنغضوا رؤوسهم علامة الاستسلام (فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُؤُوسَهُمْ) وقد تقدم الجار والمجرور (إليك) للاهتمام بشخص النبي نظراً لمكانته -ﷺ- عندهم وإقراراً بتميّزه عليهم.

ومن ذلك قوله تعالى: (وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا)[4]، جاء في (إعراب القرآن وصرفه وبيانه) حول هذا التقديم في الجار والمجرور: "وبالوالدين جار ومجرور متعلق بفعل محذوف تقديره أحسنوا إحساناً، و (إحساناً) مفعول مطلق للفعل المحذوف منصوب"[5]. وتقديم الجار والمجرور (بالوالدين) على المفعول المطلق (إحساناً) جاء عقب الأمر بعبادة الله، فقد قرن الله سبحانه وتعالى عبادته ببر الوالدين اهتماماً بشأنهما.

---

[1] ينظر: سلطان، فاضل ضايف، سورة الإسراء، دراسة بلاغية دلالية، رسالة ماجستير، جامعة الكوفة، كلية الآداب، قسم اللغة العربية، 1428هـ، 2007م، ص83.

[2] الإسراء، (48).

[3] الإسراء، (51).

[4] الإسراء، (23).

[5] صافي، محمود، الجدل في إعراب القرآن وصرفه وبيانه، مؤسسة الإيمان، بيروت، لبنان، (د.ط)، ج15، ص32.

وحول فضل الوالدين يقول الفخر الرازي في تفسيره الكبير: "وليس لأحد من الخلائق نعمة على الإنسان مثل ما للوالدين، وتقريره من وجوه:

أحدها: أنّ الولد قطعة من الوالدين، قال -ﷺ-: "فاطمة بضعة مني"[1].

وثانيها: أنّ شفقة الوالدين على الولد عظيمة، وجدهما في إيصال الخير إلى الولد كالأمر الطبيعي، واحترازهما عن إيصال الضرر إليه كالأمر الطبيعي، ومتى كانت الدواعي إلى إيصال الخير متوفرة، والطوارق عنه زائلة، لا جرم كثر إيصال الخير، فوجب أن تكون نعم الوالدين على الولد كثيرة، أكثر من كل نعمة تصل من إنسان إلى إنسان.

وثالثها: أنّ الإنسان حال ما يكون في غاية الضعف ونهاية العجز، يكون في إنعام الوالدين في ذلك الوقت، ومن المعلوم أنّ الإنعام إذا كان واقعاً على هذا الوجه كان موقعه عظيماً.

ورابعها: أنّ إيصال الخير قد يكون بداعية الخير إليه وقد يمتزج بهذا الغرض سائر الأغراض، وإيصال الخير إلى الولد ليس لهذا الغرض فقط فكان الإنعام فيه أتم وأكمل فثبت أنّه ليس لأحد من المخلوقين نعمة على غيره مثل ما للوالدين على الولد فبدأ الله تعالى بشكر نعمة الخالق وهو قوله تعالى: ﴿وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ﴾[2]، ثم أدفعه بشكر نعمة الوالدين وهو قوله: ﴿وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾[3] والسبب فيه أنّ ما بيّنا أنّ أعظم النعم بعد إنعام الإله الخالق نعمة الوالدين"[4].

---

[1] البخاري، محمد بن إسماعيل أبو عبدالله، صحيح البخاري، تحقيق: محمد زهير بن ناصر الناصر، دار طوق النجاة ، رقم الحديث3714، ط1,1422هـ، ج5، ص21 .

[2] الإسراء، (23).

[3] الإسراء، (23).

[4] الرازي، فخر الدين، التفسير الكبير، ج20، ص186.

التخصيص للتعظيم:

ويعني أن تتقدم شبه الجملة من الجار والمجرور تخصيصاً للمتقدم بالعظمة، كقوله تعالى: (أُولَـئِكَ الَّذِينَيَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَرَحْمَتَهُ)[1]، فقد تقدم الجار والمجرور (إلى ربهم) على المفعول به (الوسيلة) تخصيصاً لربهم بالتعظيم، وابتغاء الوسيلة لإرضائه.

ومن ذلك أيضاً: (وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاء وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلاَ يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلاَّ خَسَارًا)[2]، فقد تقدم ذكر القرآن في قوله (من القرآن) تخصيصاً له بالتعظيم، فذكر قبل ذكره فوائده من الشفاء والرحمة.

ومن ذلك أيضاً: (قُلْ كَفَى بِاللّهِشَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ)[3]، ولا شك بأنّ تقديم ذكره سبحانه وتعالى (بالله) إنّما هو تخصيص له بالعظمة.

وقد تكرر أسلوب تقدّم (الجار والمجرور) الدالين على الله سبحانه، في غير موضع وذلك للتعظيم، كقوله تعالى: (وَقُلِ الْحَمْدُ لِلّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَم يَكُنلَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُ وَلِيٌّ مِّنَ الذُّلِّ)[4].

ففي قوله (وَلَم يَكُنلَّهُ شَرِيكٌ) تقدم خبر كان (له) وتأخر اسمها (شريك) لغاية التعظيم، وتنزيهاً له سبحانه عن اتخاذ الشريك أو الولد.

وفي معرض ذكر الملائكة، وافتراض إقامتهم في الأرض، وحاجتهم إلى رسول تقدمت شبه الجملة الدالة عليهم في قوله تعالى: (قُل لَّوْ كَانَ فِي الأرض مَلآئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاء مَلَكًا رَّسُولاً)[5].

---

(1) الإسراء، (57).

(2) الإسراء، (82).

(3) الإسراء، (96).

(4) الإسراء، (111).

(5) الإسراء، (95).

فشبه الجملة في قوله (عليهم) تقدمت على ما بعدها، تخصيصاً للملائكة بالتعظيم، ونصاً على أنّهم يستحقون رسولاً من الملائكة لو أقاموا في الأرض (على عظمتهم) لأنّ هذه سنة الله فيمن أقام على الأرض.

وقد تتأخر شبه جملة الجار والمجرور للغاية ذاتها، وهي التعظيم كما في قوله تعالى: (وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ثُمَّ لاَ تَجِدُ لَكَ بِهِ عَلَيْنَا وَكِيلا)[1].

وهذا ترتيب عجيب في التقديم والتأخير في صياغة الجار والمجرور، فقد توالت ثلاث صياغات من هذا النوع (لك به علينا) ودلت الأخيرة على التعظيم؛ لأنّها خاصة بذكر الله سبحانه، وجاء تأخرها رعاية للنبي، فقدم (لك) اهتماماً به في هذا الخطاب وتذكيراً له بأنّ الله هو المعطي، وهو المانع، ولو شاء لأخذ ما أعطاه للنبي من فضل ورسالة وقرآن، وكأننا نستشعر بأن النبي –ﷺ– قد جزع في تلك اللحظة من عبء الدعوة ووطأتها، فقدم ذكره للاهتمام.

التخصيص للرعاية والفضل:

حيث تتقدم شبه الجمل من الجار والمجرور في هذا النوع من الأغراض لبيان رعاية الله للمخاطبين، وتفضله عليهم، من ذلك: (رَبُّكُمُ الَّذِي يُزْجِي لَكُمُ الْفُلْكَ فِي الْبَحْرِ لِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِ إِنَّهُ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا)[2]. ففي قوله (يزجي لكم الفلك) تقدم الجار والمجرور (لكم) على المفعول به (الفلك) تخصيصاً للمخاطبين وهم البشر بالرعاية وتفضلاً عليهم، ونقول: (البشر) لأنّ فضل الله يعم جميع البشر دون استثناء، كما تقدم ذكر (بكم) على خبر كان (رحيماً) رعاية للمخاطب وتفضلاً عليه، في معرض ذكر نعم الله على الإنسان في البحر وتسخير الفلك (السفن) له.

ومن ذلك أيضاً: (وَقُرْآناً فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ)[3] فقد خُص الناس بالذكر في قوله (على الناس) وقدمت على ذكر ما بعدها رعاية لهم، وتفضلاً عليهم بنزول القرآن وتفريقه وقراءته على مكث (مهل).

---

[1] الإسراء، (86).

[2] الإسراء، (66).

[3] الإسراء، (106).

يقول الصابوني: "نزلناه مفرقاً منجماً لتقرأه على الناس على تؤدة ومهل، ليكون حفظه أسهل، والوقوف على دقائقه أيسر"[1].

التخصيص للتحذير:

قد يتقدّم المخاطب من خلال شبه جملة الجار والمجرور لغاية التحذير، من ذلك ما خوطب به الشيطان (عليه لعنة الله) في السورة: (إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ)[2] فقد تقدم خبر ليس (لك) على اسمها (سلطان) تخصيصاً للشيطان بالذكر لغاية التهديد والتحذير، وذلك حين رفض السجود لآدم وتوعد ذريته بالغواية والضلال. فحذره الله سبحانه مبيناً عجزه عن أن يصل بسلطانه إلى المؤمنين من عباده.

وهذا الحديث يقودنا إلى بقية الخطاب الذي وجه للشيطان قبل بدء الخلق، فإنّ لاستعمال الجار والمجرور دلالات أخرى تظهر في الخطاب، من ذلك:

التحقير:

(وَاسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ وَعِدْهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا)[3] فالله سبحانه ينص على أنّ للشيطان أساليب شتى في غواية الإنسان، على رأسها الصوت (الوسوسة) والخيل (كناية عن العتاد والمعدات) والرَجْل (الراجلة) ومقاسمته البشر أموالهم وأولادهم. وسوف تعرض هذه الدراسة لهذه المعاني في موضوع لاحق، غير أنّ لاستعمال الجار والمجرور في هذا الخطاب دلالات لا بد من محاولة قراءتها من ذلك: (من استطعت منهم بصوتك) فقد تقدم الجار والمجرور (منهم) الدال على البشر، وذلك لتخصيص الناس بالاهتمام؛ لأنّ قضية الخطاب وموضوع الرهان كان على البشر، حيث راهن الشيطان على

---

[1] الصابوني، محمد علي، صفوة التفاسير، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، (د.ط)، 1414هـ، 1993م، ج3، ص179.

[2] الإسراء، (65).

[3] الإسراء، (64).

غوايتهم بقوله في سورة (ص): (قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ(82)إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ)[1].

فجاء تقدم ذكرهم (أي الناس) في تعبير (منهم) دالاً على تخصيصهم بالاهتمام في موضوع الرهان، وقد تقدم ذكرهم على ذكر وسائل الشيطان (بصوتك) و (بخيلك) التي تم تأخير ذكرها للتحقير، مصداقاً لقوله تعالى: (إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا)[2].

غير أنّ التعبير نفسه (منهم) قد يتأخر في آيات أخرى، لتنقلب الآية ويصبح الغاوون من البشر موضع (التحقير) وقلة الاهتمام من مثل: (قَالَ اذْهَبْ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاؤُكُمْ جَزَاء مَّوْفُورًا)[3].

فقد تأخر ذكر الجار والمجرور (منهم) عن ذكر الشيطان متمثلاً في الضمير (فمن تبعك منهم) لأنّ البشر باتباعهم للشيطان تتهاوى مكانتهم عند الله، ولا يصبحون موضعاً للاهتمام. وهذه من روائع القرآن ودقة استخدامه للكلمات.

التخصيص للتوعد والتهديد:

قد ذكرت في الغرض السابق أنّ وسائل الشيطان قد تأخر ذكرها لغاية التحقير، وهي صوتك/ خيلك/ رجلك/ ولبيان ضعفها أمام قدرة الله وثبات المؤمنين، غير أنّنا نجد أنّ بعض أشباه الجمل من الجار والمجرور قد تتقدم لغاية التوعد والتهديد كقوله تعالى: (فَإِذَا جَاء وَعْدُ الْآخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا)[4].

فهذا خطاب لبني إسرائيل يشير إلى جمعهم آخر الزمان مرة واحدة لإيقاع العقوبة عليهم، وقد ذكر الجار والمجرور (بكم) متقدماً على الحال (لفيفاً) لغاية الاختصاص الذي يفيد التوعد والتهديد، وبذلك تتباين أشباه الجمل من الجار والمجرور فتتقدم وتتأخر داخل الآية حسب السياق ومعطيات المعنى.

---

[1] سورة ص، (82-83).

[2] النساء، (76).

[3] الإسراء، (63).

[4] الإسراء، (104).

التخصيص للتحدي:

قد يوحي التقديم والتأخير في أشباه الجمل من الجار والمجرور بمعنى التحدي والتصدي للمخاطب كما في قوله تعالى: (وَقَالُواْ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الأرض يَنبُوعًا (90) أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الأَنْهَارَ خِلالَهَا تَفْجِيرًا (91) أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاء كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللّهِ وَالْمَلآئِكَةِ قَبِيلاً (92) أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَى فِي السَّمَاء وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَّقْرَؤُهُ)[1]. فهذه الآيات تحكي قصة التحدي بين النبي -ﷺ- وبين المشركين الذين أرادوا تعجيز النبي، وإجباره على تحقيق المعجزات كي يصدقوا نبوته كتفجير الأنهار وإسقاط الكِسف[2] من السماء، أو المجيء بالله والملائكة، أو بناء بيت من زخرف (من ذهب) أو الارتقاء نحو السماء، أو تنزيل كتاب!!

وقد جاء استخدام الجار والمجرور ليعكس تخصيص النبي بالتحدي: لن نؤمن (لك)، او تكون (لك) جنة، أو يكون (لك) بيت من زخرف، فقد تقدم خبر كان (لك) على اسمها (جنة) وخبر كان (لك) على اسمها (بيت من زخرف) ليفيد هذا التخصيص، ويعكس هذا التحدي. كما يعكس استخدام المشركين للضمائر معنى التحدي المشوب بالأنانية (كما زعمت علينا) فشبه الجملة من الجار والمجرور (علينا) لا تدل فقط على رغبتهم في وقوع المعجزة، بل يريدون أن يكون مردودها عائد عليهم دون سواهم لذاتيتهم وحبهم التملك.

---

[1] الإسراء، (90-93).

[2] ابن منظور، لسان العرب، مادة (كسف)، الكِسْفُ، والكِسْفةُ، الكسِفةُ: القِطْعة مما قطَعت. وفي الحديث: أنّه جاء بثريدةِ كسفٍ أي خبز مكسّر، وهي جمع كِسفة للقطعة من الشيء.

أغراض بلاغية أخرى أفادها التقديم والتأخير:

وقد أفاد نسق الجار والمجرور في التقديم والتأخير أغراضاً غير التخصيص منها:

مراعاة السبق الزماني:

ويعني ذلك أن ترتيب الكلام خلال هذا النسق (الجار والمجرور) يبدأ بالأقدم زمانياً ثم المتأخر عنه، كقوله تعالى: (وَمَن كَانَ فِي هَـذِهِأَعْمَى فَهُوَ فِي الآخِرَةِ أَعْمَى)[1] ويقصد بذلك أن من يضل في هذه (أي الحياة الدنيا) فإنه سيضل في الآخرة، بمعنى سيخسر ولا يستبين طريقه. وقد قدم الجار والمجرور –في هذه– على ما بعده –في الآخرة– مراعاة للسبق الزماني.

وقيل في معناها: "من عمي عن نعم الله التي أنعمها عليه في الدنيا فهو عن نعم الآخرة أعمى، وقيل أيضاً: المعنى من كان في الدنيا التي أُمهل فيها، وفُسِح له بها، ووعد بقبول التوبة أعمى، فهو في الآخرة التي لا توبة فيها أعمى"[2]. وهو تناظر جميل بين الجملتين نتج عنه اهتمام بكل من الدنيا والآخرة.

ومن ذلك: (أَقِمِالصَّلاَةَ لِدلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ)[3] فالآية الكريمة تحث على إقامة الصلاة لوقتها، ودلوك الشمس يعني ميلها نحو الغروب، وغسق الليل أي دخوله وظلمته، فهي إشارة إلى أهمية صلاة المغرب، وما يليها من صلوات الليل. ولا يعني ذلك إسقاط أهمية باقي الصلوات كالظهر والعصر، ولكنه نص على خصوصية صلاة المغرب كي لا يهملها أحد. وقد جاء الترتيب في ذكر هذين الوقتين (لدلوك الشمس) (إلى غسق الليل) مراعياً للسبق الزماني كعادة القرآن في الترتيب الدقيق والتنظيم.

---

[1] الإسراء، (72).

[2] القرطبي، أبو عبدالله محمد بن أحمد الانصاري، الجامع لأحكام القرآن، تحقيق: الشيخ هشام سمير البخاري، دار عالم الكتب، الرياض، (د.ط)، 1423هـ، 2003م، ج9، ص298.

[3] الإسراء،(78).

وفي قوله تعالى: (وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَّكَ)[1] يقول الصابوني: "قدم (من الليل) على الفعل (فتهجد) لحصر التهجد في هذا الوقت؛ لأنّه أفضل الأوقات، عند الله من الأوقات الأخرى، فالليل وقت منفصل، قال تعالى: (سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً)[2].

وجاء في الحديث: "إذا مضى شطر الليل أو ثلثاه ينزل الله إلى السماء الدنيا فيقول: هل من سائل فيعطى؟ هل من داعٍ فيستجاب له؟ هل من مستغفر فيغفر له"[3].

مراعاة الترتيب التصاعدي:

ونلاحظ أنّ القرآن في ترتيبه لأشباه الجمل من الجار والمجرور يراعي العملية التصاعدية في حدوث الأشياء ومنطقيتها، كقوله تعالى: (وَاسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِي الأَمْوَالِ وَالأَوْلادِ وَعِدْهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلاَّ غُرُورًا)[4].

وقد أعدنا حديث الخطاب مع الشيطان؛ لأنّه دال على غرض آخر من ناحية الترتيب التصاعدي، ففي ذكر الصوت (بصوتك) والخيل (بخيلك) والرجال (ورجلك) مراعاة لتدرج الأساليب التي يلجأ إليها الشيطان في إغواء الإنسان، فيبدأ بالصوت وهو الوسوسة، وحديث النفس الذي يدعو الإنسان للمعصية. فإن فشلت لجأ الشيطان إلى ما هو أعتى وأشد تأثيراً، وهو الخيل والراجلون، وقد اختلف في معناها، فقيل كل ما هو راكب أو ماشٍ من أعوان الشيطان من الإنس والجن، وقيل بل هي كل خيل مشت في معصية الله، فهو للشيطان، وكل إنسان مشى في معصية الله، فهو للشيطان، وأما مشاركة الشيطان للإنسان في المال والأولاد، فقد تكون إشارة إلى كل مال أُنفق في معصية الله وقيل بل هو ما كانوا يحرّمونه من البحيرة والسائبة والوصيلة والحام (وهي الأنعام التي حرموها على أنفسهم لسوء معتقداتهم) فكأنها نصيب للشيطان، وأما

---

[1] الإسراء، (79).

[2] الإسراء، (1).

[3] الألباني، محمد ناصر الدين، الجامع الصغير، عن أبي هريرة، قال الشيخ الألباني (صحيح)، (د.ط)، (د.ت) انظر: حديث رقم 802، في صحيح الجامع.

[4] الإسراء، (64).

الأولاد، فقيل هم أولاد الزنا، وقيل بل هم الأولاد الذين قتلوا على أيدي أهليهم، وقيل هم الذين تمت تسميتهم (عبد الحارث) و (عبد العُزى) و (عبد اللات)، و(عبد الشمس)[1].

يقول سيد قطب حول هذا المعنى: "هو تجسيم لوسائل الغواية والإحاطة والاستيلاء على القلوب، والمشاعر والعقول، فهي المعركة الصاخبة تستخدم فيها الأصوات والخيل والراجلون، على طريقة المعارك والمبارزات، يُرسل فيها الصوت فيزعج الخصوم، ويخرجهم من مراكزهم الحصينة، فإذا استدرجوا إلى العراء أخذتهم الخيل، وأحاطت بهم الرجال"[2].

التدرج في ذكر حركة الإنسان:

إن المتأمل في أسلوب القرآن الكريم، يرى أنّ الآيات تراعي حركات الإنسان وسكناته، وردود فعله إزاء ما يعرض له من أمور العقيدة، فتشكل بذلك منبعاً ثَرّاً لعلم النفس، وتأمل أحوال الإنسان، فمن ذلك حديث القرآن عن إعراض فئات من البشر عن تدبر القرآن وفهمه: (وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ وَلَّوْا عَلَى أَدْبَارِهِمْ نُفُورًا)[3].

فقد تدرجت الآيات في ذكر ردود فعل هؤلاء المشركين عند سماعهم القرآن الكريم فبدأت بذكر قلوبهم (على قلوبهم أكنَّة)[4] (وفي آذانهم وقراً) أي الصمم كي لا يسمعوا الآيات الكريمة، ثم الحديث عن فرارهم وتوليتهم الأدبار، وفي هذا مراعاة للتدرج في ردود فعل الإنسان، فإن الإعراض يبدأ في القلب، ثم يظهر على باقي الحواس كالسمع وغيره. ثم يكون الفرار عن العجز عن الثبات والسماع.

---

[1] القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج10، ص 187.

[2] قطب، سيّد، ظلال القرآن، ج13، ص343.

[3] الإسراء، (46).

[4] ابن منظور، لسان العرب، مادة (كنّ)، وهي الأغطية وكل ما يغطي القلب فيحول بينه وبين التدبر.

وحين تأخذ الآيات بذكر عقوبة هؤلاء عند الحساب، نلاحظ أنّها تبدأ بذكر الوجه لأنّه موطن الحواس، وعليه تظهر علامات الأعراض: (وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا)[1].

ففي تقدم شبه الجملة –على وجوههم– على الأحوال بعدها (عمياً وبكماً وصماً) إنّما فيه مراعاة لأحوال الإنسان، بدت على وجهه علامات الإعراض، ممثلة بالعمى والبكم والصمم، وقد قُدّم العمى (عدم البصيرة) لأنّه يقع في القلب أولاً ثم قُدم البكم على الصمم؛ لأنّ البكم ينتج عن الصمم، فالأبكم في العادة لا يسمع (وهذه إشارة طبية رائعة) على الصعيد العلمي، أمّا على الصعيد الأخلاقي فالمعنى أنّهم خرسوا عن كلمة الحق؛ لأنّهم رفضوا سماعها من الأساس.

القسم والتأكيد:

وقد ظهر هذا الغرض جلياً في آية مفعمة بمعنى القسم، وقوة التأكيد، وذلك في قوله تعالى: (وَبِالْحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا)[2] فقد تقدم الجار والمجرور مرتين في الآية الكريمة (وبالحق) ليستشعر القارئ قوة القسم، والتأكيد على الحق، الذي يمثله القرآن الكريم في نزوله، فجاءت الأولى مقدمة على الجملة الفعلية (أنزلناه) لتدل بضمير المتكلم على أنَّه من عند الله، وليس من عند غيره، وجاءت الثانية –وبالحق نزل– مرتبطة بالجملة الفعلية المجردة عن الضمير لتدل على أنّ القرآن يحمل في ذاته الحق كله. فهو عظيم بمن أنزله، وهو عظيم بذاته، فسبحان الله العظيم!!

---

[1] الإسراء، (97).

[2] الإسراء، (105).

المدح والإطراء:

وقد يدل تقدم شبه الجملة من الجار والمجرور على معنى المدح والإطراء، فعند وصف الخاشعين من المؤمنين، ترد صورتهم وقد خروا لأذقانهم يبكون: (وَيَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا)[1].

ففي تقدم (للأذقان) وتأخر الجملة الفعلية (يبكون) رسم للصورة المؤثرة لهؤلاء الخاشعين، لا لتحمل معنى الإذلال الذي يقع على من يخر لذقنه على الأرض، ولكنه معنى المدح والإطراء لهذا التسليم المطلق لله والبكاء الخاشع.

القصر (الحصر):

ويظهر هذا الأسلوب في الجمل المسبوقة بالنفي، وقد أشار إليه الجرجاني في الدلائل وبيّن دلالته على القصر فقال ممثلاً عليه: "وكذلك إذا قلت ما ضربتُ زيداً، كنت نفيت عنك ضربه، ولم يجب أن يكون قد ضُرب، بل يجوز أن يكون قد ضربه غيرك، وأن لا يكون قد ضُرب أصلاً، وإذا قلت: ما أنا ضربت زيداً، لم تقله إلا وزيدٌ مضروب وكان القصد أن تنفي أن تكون أنت الضارب.

ويضرب الجرجاني على هذا الأسلوب قول الشاعر:

وما أنا أسقمت جسمي به ولا أنا أضرمت في القلب نارا[2]

يقول: المعنى كما لا يخفى على أن السقم ثابت موجود وليس القصد بالنفي إليه، ولكن إلى أن يكون هو الجالب له ويكون قد جرّه إلى نفسه"[3].

وظهر هذا الأسلوب في سورة الإسراء في قوله تعالى: (وَآتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ أَلَّا تَتَّخِذُوا مِن دُونِي وَكِيلًا)[4].

---

[1] الإسراء، (109).

[2] لم يذكر الجرجاني اسم قائله.

[3] الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص95.

[4] الإسراء، (2).

فقد أفاد تقديم الجار والمجرور (من دوني) على المفعول به (وكيلاً) معنى حصر الوكالة على الله لا على غيره، يقول السعدي في تفسيره: "أي وقلنا لهم ذلك، وأنزلنا إليهم الكتاب لذلك، ليعبدوا الله وحده، وينيبوا إليه، ويتخذوه وحده وكيلا"[1].

فهذه أبرز غايات التقديم والتأخير في نسق الجار والمجرور، خصصتها الدراسة بالذكر قبل باقي الأغراض في السورة؛ لما تميّز به الجار والمجرور من وفرة الظهور في السورة، بحيث شكل تركيباً بارزاً لا يمكن إغفاله قبل ذكر باقي الأغراض.

الجمل الفعلية:

للجمل الفعلية حضور لافت في سورة الإسراء، لا تخطئه عين المتأمل إذا ما قارن استهلال الآيات بعضها ببعض، وتراوحها ما بين جمل اسمية وأخرى فعلية، حيث يمكن القول إن ثلثي آيات السورة تبدأ بجمل فعلية، تفيد معنى التجدد والتنويع في الخطاب، وتباين الزمن، فيُضفي على السورة حيوية وحركة، مما لا يتحقق لو غلب عليها طابع الاسمية والثبوت.

وعند تلمس مواطن التقديم والتأخير خلال هذا النمط اللغوي، تظهر ملامح بلاغية قيّمة، لعل أبرزها ما ظهر في التوجيهات المتلاحقة حول دستور الحياة في المجتمع الإسلامي، تلك التي تحث الإنسان على التوحيد وبر الوالدين، وعدم القتل والزنا، وإحقاق الحقوق وغيرها. وقد وردت على النحو التالي:

(لَّا تَجْعَل مَعَ اللّهِ إِلَهًا آخَرَ...)[2]

(وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُواْ إِلاَّ إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا...)[3]

(وَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُوَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ...)[4]

(وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا...)[5]

---

[1] السعدي، عبد الرحمن، تيسير الكريم الرحمن، ص460.

[2] الإسراء، (22).

[3] الإسراء، (23).

[4] الإسراء، (26).

[5] الإسراء، (26).

(وَلاَ تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ)[1]

(وَلاَ تَقْتُلُواْ أَوْلاَدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُم...)[2]

(وَلاَ تَقْرَبُواْ الزِّنَى...)[3]

(وَلاَ تَقْتُلُواْ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللّهُ إِلاَّ بِالحَقِّ...)[4]

(وَلاَ تَقْرَبُواْ مَالَ الْيَتِيمِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ...)[5]

(وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذا كِلْتُمْ...)[6]

(وَلاَ تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ...)[7]

(وَلاَ تَمْشِ فِي الأَرض مَرَحًا إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الأرض...)[8]

(وَلاَ تَجْعَلْ مَعَ اللّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتُلْقَى فِي جَهَنَّمَ...)[9]

وقد جاءت هذه الآيات متوالية في السورة، بين الآيات (22–39) مبدوءة جميعاً بصيغة (لا تفعل) المضارع المقرون بـ لا الناهية، وتعني: "طلب الكف عن الفعل على وجه الاستعلاء والإلزام" فالنواهي الواردة في هذه المنظومة الأخلاقية، تدل على حُرمة ما ورد فيها من أعمال وكراهية شديدة للإتيان بها، وقد وصفها الله سبحانه وتعالى بعد ذلك بقوله[10]: (كُلُّ ذَلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِندَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا)[1].

---

[1] الإسراء، (29).

[2] الإسراء، (31).

[3] الإسراء، (32).

[4] الإسراء، (33).

[5] الإسراء، (34).

[6] الإسراء، (35).

[7] الإسراء، (36).

[8] الإسراء، (37).

[9] الإسراء، (39).

[10] سلطان، فاضل ضايف، سورة الإسراء (دراسة بلاغية دلالية)، ص67– 68.

وعند التأمل في هذه التوجهات الثلاثة عشر، نجد بعضها قد تقدم على بعضها الآخر، وأنّ الأفعال المضارعة المجزومة بـ لا الناهية قد جاءت في تقديمها وتأخيرها وفق برنامج واضح المعالم، يضع للإنسان خطة لحياته الأخلاقية. فالتقديم والتأخير هنا جاء بين آية وأخرى، وليس بين ألفاظ الآية الواحدة.

وأول الملحوظات أنّ التوجيه الأول يتعلق بالوحدانية (ولا تجعل مع الله إلهاً آخر) لأنّ الوحدانية هي أول أركان الدين، وقد بُني الإسلام على خمسٍ، أولها شهادة أن لا إله إلا الله، ومتى وقرت في قلب المؤمن، سهل عليه الانصياع لما سواها من التعاليم.

والمتأمل في هذه التوجيهات المتوالية يلاحظ أنّ ثمة منهجاً يؤلف بينها، ويربط بين عناصرها، ألا وهو تشكيلها لمنظومة حياة الإنسان الاجتماعية، سواء ما تعلق منها بالعبادة والسلوك، أم ما تعلق بالحياة المادية والإنفاق وصلة الرحم، التي تربط الإنسان بمن حوله، وقد وضحها القرطبي بقوله: "إنّها محاسن الأخلاق والحكمة وقوانين المعاني المحكمة والأفعال الفاضلة"[2].

فأول رعاية إلهية للعلاقات هي رعاية علاقة الإنسان بربه (ولا تجعل مع الله إلهاً آخر) وهي أرقى العلاقات وأسماها، وبها ينقذ الإنسان وجوده وسائر أعماله، ثم علاقته بوالديه (وبالوالدين إحسانا) وبذلك تضيق الحلقة من الأوسع إلى الأضيق، ثم علاقته بذوي القربى (أقاربه) ثم الأباعد (المسكين وابن السبيل) وبذلك يكون التدرج بحسب الرتبة والأحقية الاجتماعية، ومن قبلها الإلهية، فالله هو الأحق، ثم الأبوان ثم الأقربون، ثم من هم حولنا من المحتاجين وهذا ارتقاء بالإنسانية، ومراعاة لحق الصحبة، بما ينفع الإنسان وأسرته ومجتمعه.

وتنتقل الآيات بعد ذلك، لتنظيم القوانين الاجتماعية التي تتعلق بالاقتصاد والحياة المادية، فالاعتدال في النفقة سر الاستقرار الاقتصادي (وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى

---

[1] الإسراء، (38).

[2] القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج10، ص171.

عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ)[1] فلا إسراف ولا تقتير (والاقتصاد نصف المعيشة) وهذا يتم مراعاته من قبل الجميع، الفرد والجماعة والسلطة الحاكمة؛ لأنّ الآيات تصلح حال الجميع.

ثم تقدم الآيات في معرض ترسيخ القوانين الآمنة قوانين القتل والزنا (وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ)[2](وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَى)[3]، وكلاهما جريمة بشعة (قتل الأولاد والزنا) غير أن قتل الولد أبشع، لذا قُدم على الزنا. لما فيه من اختراق واعتداء على صلة الرحم (رحم الإنسان بولده).

وقد ورد ذكر قتل الأولاد في موضعين من القرآن، في سورة الإسراء وسورة الأنعام. إلا أنّ التعبير ورد فيه تقديم وتأخير بين السورتين. فجاء في سورة الأنعام: (وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُم مِّنْ إِمْلَاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ)[4] بينما ورد في الإسراء: (وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُم).

فالآية الأولى تضمنت حرف الجر (من) الذي يفيد السببية والتعليل؛ لأنّ الفقراء حين يعيشون شدة الفقر يقومون بقتل أولادهم؛ لأنّهم لا يجدون هم ما يأكلونه، فضلاً عن أولادهم، أمّا الآية الثانية فقد تضمنت لفظة (خشية) التي تعني الخوف الآتي عبر المستقبل، وليس الخوف الحالي؛ لأنّ الأغنياء يعيشون اليوم في غنى، ويخشون أن يأتي يوم يصابون فيه بالفقر؛ لهذا السبب يلجأون إلى قتل أولادهم[5].

وقد أيّد هذا الرأي أبو الإصبع المصري فقال: وذلك أنّ الكلام في الآية الأولى موجه إلى الفقراء الواقع بهم الفقر وليس أنّهم يخشونه، فأوجبت البلاغة تقديم عِدَتِهم بالرزق قبل تكميل العدة برزق الأولاد. وفي الثانية يشير الخطاب لغير الفقراء، وهم الذين يقتلون أولادهم خشية الفقر، وليس أنّهم مفتقرون في الحال؛ بسبب أنّهم يخافون

---

[1] الإسراء، (29)

[2] الإسراء، (31).

[3] الإسراء، (32).

[4] الأنعام، (152).

[5] ينظر: السامرائي، التعبير القرآني، ص64.

أن تسلبهم كلف الأولاد ما بأيديهم من الغنى، فاقتضى تقديم العدة برزق الأولاد فيأمنوا من الفقر[1]. فقال لا تقتلوهم فإنا نرزقهم وإياكم، بمعنى أنّ الله جعل معهم رزقهم، فإنّهم لا يشاركونكم في رزقكم فلا تخافوا الفقر[2].

أمّا الزنا فجريمة أخلاقية، أُخِّرت عن ذكر قتل الأولاد؛ لأنّ الزنا يتعلق بأخلاق المجتمع، بينما يتعلق قتل الولد بصلة الرحم، وصلة الرحم متعلقة بعرش الرحمن، يصل الله من وصلها ويقطع من قطعها، لذا تعجبت الملائكة من القتل لا الزنا عند خلق آدم –عليه السلام–: (قَالُواْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاء)[3]. ثم جاء ذكر القتل العام: (وَلاَ تَقْتُلُواْ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ)[4].

وجعل الزنا مقدماً عليه؛ لأنّ مفاسد الزنا وما يتبعه من اختلاط الأنساب وانتشار الأمراض –الإيدز وغيره– أشد خطورة من مفاسد القتل والثارات، فالثارات قد تنتهي بالصلح، أما اختلاط الأنساب وميلاد أطفال غير شرعيين لا يمكن إصلاحه!!

وتأتي الأفعال اللاحقة (ولا تقربوا مال اليتيم) و (أوفوا العهد) و (أوفوا الكيل إذا كلتم) و (لا تقف ما ليس لك به علم) و (لا تمش في الأرض مرحاً) لتنظم حياة الإنسان خارج بيته في معاملاته، فلا اعتداء على الضعفاء، وعلى رأسهم الأيتام؛ لأنّهم الحلقة الأضعف، لذا خصت بالذكر، ولا نكث بالعهود ليطمئن الناس إلى بعضهم الآخر، ولا تلاعب بالميزان والأوزان، لأنّ البيع والشراء لا سيما فيما يتعلق بالوزن والمكيال يمسّ حياة الناس بصورة يومية، ويتعلق بأقواتهم، لذا خُصّ بالذكر.

ثم ذكر صفة اجتماعية بغيضة، وهي (الفضول) وتتّبع ما لا حاجة لتتبعه (ولا تقف ما ليس لك به علم) وكأنّها إشارة إلى الإشاعات، ونشر الأخبار التي تقوّض أمن

---

[1] ينظر: المصري، ابن أبي الإصبع، بديع القرآن، تحقيق: حفني شرف، ط1، مكتبة نهضة مصر، 260–261. وينظر: ابن أبي الإصبع، تحرير التحبير، المصري، تحقيق: حفني شرف، نشر لجنة إحياء التراث الإسلامي، القاهرة،ص 561.

[2] ينظر: السامرائي، التعبير القرآني، ص 64–65.

[3] البقرة، (30).

[4] الإسراء، (33).

المجتمع، فدعا إلى التثبت من صحة كل ما يرد عن طريق السمع والبصر والفؤاد (وسائل التثبت):

(إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً)[1] وقد تقدم السمع؛ لأنّه وسيلة الاتصال ونقل الأخبار، لقوله تعالى: (وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ)[2] فالذي ينبئك بنقل المعلومات يوصل إلى أذنك وليس إلى عينك ثم ذكر البصر (العين) ولكنها ليست في قوة السماع في نقل الأخبار؛ لأنّ العين قد تكذِّب صاحبها، وتحتاج إلى وقت في فهم ما ترى، فسيدنا إبراهيم حين اعتمد على عينيه في محاولة فهم الخلق والخالق ضل: (فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ)[3]. ضل؛ لأنّ عينيه أضلتاه، لكنه عاد واهتدى عن طريق السمع (الوحي) لذا قُدّم السمع على البصر، ثم أُخر الفؤاد (العقل) والفؤاد في القرآن يشير إلى العقل وليس إلى القلب؛ لأنّ القلب موطن العاطفة لقوله تعالى: (لَوْلَا أَن رَّبَطْنَا عَلَى قَلْبِهَا)[4]في الإشارة إلى عاطفة أم موسى حين فقدت رضيعها، فالعقل قد يُضل صاحبه، لأنّ عقل الإنسان قاصر، وقد يجره إلى الكفر، لذا قُدّم السمع عليهما جميعاً إشارة إلى علو (الوحي) الذي أوصل إلى الناس حقائق الأشياء بالسماع (والكتب السماوية).

ثم جاء الفعل الذي يعرض للكبر (التبختر والتطاول على الناس): (وَلَا تَمْشِ فِي الأرض مَرَحًا...)[5] وأخبر الإنسان أنّه بتكبره لن يستطيع أن يخرق الأرض لأنّ الأرض أقوى منه، ولن يصل الجبال؛ لأنّ الجبال أطول منه، فيضحي الإنسان هزيلاً ضعيفاً، عند مقارنته بمظاهر الطبيعة من حوله، فخير له أن لا يتطاول على من حوله.

---

[1] الإسراء،(36).

[2] فاطر، (4) .

[3] الأنعام، (78) .

[4] القصص، (10).

[5] الإسراء، (37).

هذا التتابع بين الأفعال، لم يأت عبثاً، وإنما جاء متدرجاً في الأهمية كخطة إلهية لا تخطئ، من لدن خبير عليم، وهو الله سبحانه الذي علم تركيب البشر وصفاتهم، وعلم ما يناسبهم وما يلائم مجتمعاتهم؛ لأنّ الآفات الاجتماعية التي ذكرت، إنّما تقع في جميع مجتمعات البشر، وتتكرر عبر الزمان والمكان، فينتهي الزمان، ويختفي المكان.

الأغراض البلاغية في الجمل الفعلية:

يؤدي تقدم الأفعال وتأخرها في سورة الإسراء إلى تحقيق معانٍ وإيحاءات بلاغية، تظهر لعين المتأمل، وتسعده بطاقاتها الأدبية والأخلاقية الرفيعة، ولكن قبل ذلك لا بدَّ من توضيح لوضع الجملة الفعلية وترتيبها النحوي، وهو أنّ الجملة الفعلية تعتمد على ركنين أساسيين هما: الفعل والفاعل، لا يجوز للثاني أن يتقدم فيها على الأول، ولا يستغني أحدهما عن الآخر، وبذا لا يكون ثمة مجال للحديث عن التقديم والتأخير في الجملة الفعلية إلا من حيث ارتباطها بالمتعلقات كالمفاعيل وغيرها، فيكون لتقدمها على الفعل أو تأخرها عنه غايات بلاغية، يمكن تبيّنها، ومثال ذلك قوله تعالى: ﴿وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ (3) وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ﴾[1].

فقد تأخر الفعل عن المفعول به في الشاهدين وجوباً؛ لأنّ المفعول به واقع في جواب (أمّا) المقدرة، وأصل الكلام: (وأمّا ربك فكبّر) و (أمّا ثيابك فطهّر). وهنا يكون لتقديم الفعل وتأخيره إيحاءات بلاغية لا يمكن ان تقع لو تم ترتيب الكلام حسب رتبته الطبيعية مثل: فكبّر ربك/ فطهّر ثيابك.

فالمعنى المستفاد من تأخر الفعل هو تعظيم المتقدم (المفعول به) الدال على ذات الإله سبحانه وهو (ربك) أمّا تأخر الفعل الثاني (فطهّر) فدال على الاهتمام بالمتقدم وهو (ثيابك) لأهمية تطهيرها ونظافتها.

غير أنّ الأفعال قد توصل إشارات بلاغية للقارئ عبر تقدمها وتأخرها على أفعال أخرى في نفس الآية، دون مساس بالرتبة النحوية، وهذه بعض الأغراض الواردة في السورة:

---

[1] المدثر (3-4).

الإيحاء بمعنى الإيجابية:

والحقيقة أنّ المتأمل في سورة الإسراء وغيرها من السور القرآنية يستشعر معنى الإيجابية، وهذا يعني أنّ الأصل في هذا الدين (الإسلامي) هو الخير والجمال والرحمة، وغيرها من القيم النبيلة، فالرحمة مقدمة على العذاب، والحسنة مقدمة على السيئة. والهداية مقدمة على الضلال، والجنة مقدمة على النار، والبشارة مقدمة على الإنذار.

فإن ظهر الترتيب على غير هذا الأساس في الآيات القرآنية فذلك لغاية بلاغية عظيمة، ومن أمثلة ذلك: (إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا)[1]، فالإحسان مقدم على الإساءة؛ لأنّ الله أصل الإحسان كله.

وفي قوله تعالى: (عَسَى رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا)[2].

فبدأ بذكر الرحمة (يرحمكم) لأنّها الأصل في شرع الله، وأخّر ذكر العذاب (وجعلنا جهنم) وذلك بما كسبت أيدي الناس.

وفي قوله (وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا) في مخاطبة بني إسرائيل قُدّم الفعل الدال على معاصيهم، وأُخر الفعل الدال على عقوبة الله، لأنّ عقابه لا يأتي إلا بعد وقوع الناس في الفساد، فهو ليس أصلاً في الشريعة، ولا من عناوينها، وفي قوله: (وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا (9) وَأَنَّ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا)[3].

قدم فعل البشارة (يُبشر) على فعل الإعداد للعذاب (اعتدنا لهم عذاباً أليما) لأنّ البشارة أصل في الدين وسمة دالة عليه.

---

(1) الإسراء، (7).

(2) الإسراء، (8).

(3) الإسراء، (10).

وتزخر السورة بمثل هذا الأسلوب، ومن ذلك: (رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ إِن يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ أَوْ إِن يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ)[1] فقدمت الرحمة على العذاب.

وفي قوله: (وَقُلْ جَاء الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا)[2]. قدم ذكر مجيء الحق على زهوق الباطل، لأنّ إحقاق الحق غاية من غايات الشريعة، ومطمحاً من مطامحها.

وفي قوله تعالى: (إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاء وَيَقْدِرُ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا)[3]. قُدم بسط الرزق على تقديره (أي إعطائه بقدر) لأنّ بسط الله للأرزاق ليس له حدود، ولو شاء لوسع الرزق على الجميع، ولكنه عقّب بقوله: (إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا) أي إنّ العباد مختلفون في أحقيتهم في الرزق، فمنهم من تفسده النعمة، ومنهم من تصلحه، فالله بالعباد بصير؛ يبسط ويوسع حسب ما يصلح حالهم.

وفي معرض ذكر هداية الإنسان وضلاله قُدمت الهداية على الضلال، من مثل: (وَمَن يَهْدِ اللّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَاء)[4].

وفي مجال المجاهرة بالصلاة والمخافتة بها، رفض القرآن كليهما؛ لأنّ المجاهرة قد تزعج من هم حول المصلي، كما أنّ المخافتة تخفي معاني الصلاة حتى عن مؤديها؛ لذلك كانت الوسطية أفضل، غير أنْ ذكر المجاهرة قد تقدم على ذكر المخافتة؛ لأنّ الجهر يعبر عن معنى التواصل؛ لِما فيه من الإيجابية، مما يجعله يتقدم على الصمت، فعن طريق الجهر بالدعوة والقرآن اهتدى الناس إلى خالقهم، وبالجهر أُرسل الأنبياء لا بالصمت، قال تعالى: (وَلاَ تَجْهَرْ بِصَلاَتِكَ وَلاَ تُخَافِتْ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلاً)[5].

---

(1) الإسراء، (54).

(2) الإسراء، (81).

(3) الإسراء، (30).

(4) الإسراء، (97).

(5) الإسراء، (110).

ومن لطيف الإشارات حول معنى الإيجابية والسلبية أنّ الآية تنقلب حين تشير إلى طبيعة الإنسان، ففي قوله تعالى: (وَيَدْعُ الإِنسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءهُ بِالْخَيْرِ)[1] نجد أنّ السلبية تسبق إلى فكر الإنسان؛ لجهله وعجلته، فيشرع بالدعاء على أخيه الإنسان، بالشر أو الهلاك، ولا يعلم أنّه بصلاح أخيه يكون صلاحه، وأنّ الخير يعم الجميع لو صفت قلوب الناس، لذلك عقبت الآية على هذا الأمر بقوله تعالى: (وَكَانَ الإِنسَانُ عَجُولاً)[2].

التدرج والترتيب:

حيث تبدو الأفعال داخل الآيات الكريمة وقد راعت تدرج وقوع الأحداث والأقوال بصورة منطقية معقولة؛ لتعكس معنى التنظيم، والترتيب الإلهي الذي لا يسمح بالظلم أو الفوضى في تطبيق الأحكام والعقوبات، من ذلك قوله تعالى: (وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا)[3].

فعند تأمل ورود الأفعال: أردنا/ نهلك/ أمرنا مترفيها/ فسقوا فيها/ حق عليها القول/ دمرناها... نجد تدرجاً في وقوع هذه الأفعال، فبإرادة الله تقع أولاً؛ لأنّ هذه القرى ظلمت وطغت فيأتي الأمر بالهلاك، ثم يكون الإيحاء للمترفين (الأغنياء) بالإفساد ليكون سبباً ظاهراً للهلاك، وفي رواية أخرى للآية (أمّرنا) بتشديد الميم، أي جعلنا المترفين أمراء في هذه القرى، كي يقودوها إلى الهلاك، فيأتي الفسق قاصمة ظهر البعير، وليكون مرحلة ما قبل التدمير، وبذلك يحق القول أي كلمة الله بالتدمير.

فورود الأفعال على هذا النسق، يوحي بسنة ثابتة في تدمير القرى، يعزز ذلك صيغة الشرط الواردة في أول الآية (وإذا) لأنّها تفيد معنى الشرط الواقع على الأحداث التي يكثر وقوعها، ولو كانت هذه الحوادث قليلة الحدوث لقال (إن أردنا) لأنّها تدل على ما هو أقل وقوعاً.

---

[1] الإسراء، (11).

[2] الإسراء، (11).

[3] الإسراء، (16).

ومن المواضع الدالة على التدرج قوله تعالى: (قُل كُونُواْ حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا (50) أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُؤُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَى هُوَ قُلْ عَسَى أَن يَكُونَ قَرِيبًا)[1].

حيث ترد الأفعال في هذه الآية دالة على تدرج الحوار بين النبي -ﷺ- والمنكرين للبعث بعد الموت، وقد ذكرت الآيات السابقة عليها استنكارهم لبعث العظام والرفات مرة أخرى إلى الحياة (وَقَالُواْ أَئِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا)[2].

وجاء جواب الله على لسان نبيه الكريم (كونوا حجارة أو حديداً) أي أنّ هناك ما هو أقوى من العظام والرفات، وهو الحجارة والحديد فإنّها جميعاً من خلق الله، فهو خالقها، وهو الأقدر على بعثها، وهنا يظهر تدرج آخر في ذكر الحجارة والحديد من الأضعف إلى الأقوى، فمعلوم أنّ الحديد أقوى من الحجارة لقوله تعالى: (وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ)[3].

وقد يكون المقصود بـ (أو خلقاً مما يكبر في صدوركم) أي شيء آخر قد يمر بخواطركم، حول قوة الله في البعث والإحياء. ثم يأتي التدرج في الحوار بقولهم (من يعيدنا؟) فيأتي الجواب (الذي فطركم أول مرة) ثم يظهر التدرج في ردة فعلهم (فسينغضون إليك رؤوسهم) ثم سؤالهم: (متى هو؟) وجوابه: (عسى أن يكون قريباً).

فهذه الحوارية الرائعة وصف دقيق لما يدور في أفئدة الخصوم، وما يعتريهم إزاء ما يسمعون، وتشكل تدرجاً في وصف ردود أفعالهم كالأسئلة الحائرة، وطأطأة الرأس من الحيرة (فسينغضون إليك رؤوسهم) وعدم تردد النبي في الإجابة حيث تأتي فورية (عسى أن يكون قريباً).

وعودة إلى الخطاب الذي ذكر قبل صفحات، واصفاً مراحل غواية الشيطان للإنسان نلاحظ أنّ الأفعال أيضاً داخل الخطاب تعكس معنى التدرج من الأضعف إلى

---

[1] الإسراء، (51).

[2] الإسراء، (49).

[3] الحديد، (25).

الأقوى في هذه المحاولات الشيطانية: (وَاسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِي الأَمْوَالِ وَالأَوْلادِ وَعِدْهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلاَّ غُرُورًا)[1].

فأفعال الأمر الواردة على سبيل التهكم والوعيد: استفزز/ اجلب/ شاركهم/ وغيرها... ترسم صورة لهذا التدرج الشيطاني، في محاولة فتنة الإنسان، فهو يستفز الإنسان أولاً بالصوت والوسوسة، ثم تتصاعد المحاولة بالجَلبة، أي الضوضاء والحركة الفعلية التي عبر عنها القرآن بالخيل والراجلين، كناية عن جميع المعدات، والوسائل التي يمكن أن تصنع الفوضى والضلال، وقد تكون كناية عن الحروب ومعداتها، فهي أنكى وسيلة في إيذاء البشر وقتلهم، ثم يتصاعد الأمر إلى تمكن الشيطان من مشاركة الناس بأموالهم وأولادهم، وهذا كناية عن تملكه لإرادتهم، وتحكمه في أعزّ ما يمتلكون (المال والولد). فكان هذا التصوير لمحاولات الغواية، إعجازاً قرآنياً في إيصال (ما سوف يحدث على الأرض، قبل خلق الناس وغوايتهم!!

كذلك يظهر التدرج في وظيفة الأفعال، عند ذكر المكان كقوله تعالى: (وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلْطَانًا نَّصِيرًا)[2].

فقد قدم الفعل (أدخلني) على (أخرجني) في دعاء الإنسان مراعاة للتدرج المكاني، فالمدخل يأتي منطقياً قبل المخرج، وهذا يفيد معنى الدعاء بأن تكون مداخل الإنسان لأي أمر من الأمور في العقيدة والعمل مداخل صدق وتوفيق، كذلك يدعو أن تكون مخارجه أي نتائج عمله كذلك.

ويظهر التدرج في وصف حركات الإنسان وسكناته، وما يصدر عنه من ردود أفعال اتجاه من ينعم عليه، من ذلك:

(وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الإِنسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَى بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ كَانَ يَؤُوسًا)[3]. فالإنسان بطبيعته جاحد للنعمة، ناكر للجميل، فعندما تطاله النعمة يعرض عن المنعم وهو الله سبحانه

---

[1] الإسراء، (64).

[2] الإسراء، (80).

[3] الإسراء، (83).

وتعالى، وقد صورت الآية إعراضه بالتدريج، فهو أولاً يكون بالوجه (أعرض) لأنّ الإعراض يكون كذلك، ثم الالتفات بالجسم بعيداً (ونأى بجانبه) متنكراً للجميل والنعمة. والحقيقة أنّ هذه ردة فعل الناس اتجاه بعضهم الآخر أيضاً، يتملقون لبعضهم الآخر، وعندما يحصلون على مبتغاهم يبتعدون عمن أحسن إليهم، فإن كان هذا حالهم مع بعضهم الآخر، فكيف الحال مع خالقهم لا سيما أنّهم لا يرونه ولا يخشون سخطه؟!.

التدرج من الأضيق إلى الأوسع:

ويظهر ذلك في قوله: (وَلاَ تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلاَ تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا)[1]. فقد تدرج في توجيهه للإنسان حول أسلوب الإنفاق من الحالة الأضيق وهو (اليد المغلولة) كناية عن التقتير، إلى الحالة الأوسع جداً وهي الإسراف والتبذير كي يبين أنّ كليهما مذموم، وخيم العواقب، وبذا يثبت الإنسان على الوسطية إن اهتدى.

التدرج من الأقل إلى الأكثر:

كقوله تعالى: (إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلاَهُمَا فَلاَ تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلاَ تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلاً كَرِيمًا)[2]. ففي وصف بر الوالدين يبدأ بذكر الأقل، وهو الواحد منهما، ثم يتدرج إلى ذكر الأكثر وهو (كلاهما) لأنّه لا أحد يخلو من ظرف يجمعه بأحد والديه أو كليهما عند الكبر إلا ما ندر.

وثمة مواضع أخرى تعكس غرض التدرج في وظيفة الأفعال التي عرضت الدراسة أبرزها:

التعظيم:

وقد يتأخر الفعل عن متعلقه لغاية التعظيم، كقوله تعالى: (وَقُرْآناً فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنزِيلاً)[3]. مكثَ يمكثُ مكثاً[1].

---

[1] الإسراء، (29).

[2] الإسراء، (23).

[3] الإسراء، (106).

فقد تأخر الفعل (فرقناه) وكان حقه التقديم (فرقنا القرآن) وذلك تعظيماً للمتقدم عليه وهو المفعول به (قرآناً) حيث يستشعر القارئ عظمة المتقدم وقداسته.

ولأجل هذا التعظيم أُخّر الفعل (أنزلناه) في قوله تعالى: (وَبِالْحَقِّ أَنزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ)[2] فتأخر الفعل عن متعلقه إنّما لإبراز هذه الغاية، وهي تعظيم القرآن، وجاء التكرار من بعده لتأكيد هذا المعنى.

المديح:

وهذا يعني تقديم الفعل إطراءً واستحسانًا لفاعله كقوله تعالى: (وَيَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا)[3].

وهنا نلمح إلى جانب الإطراء معنى التدرج أيضاً، فالمؤمنون يخرون (أي يهبطون إلى الأرض حتى تصل أذقانهم إليها من الخشوع، ثم تأتي مرحلة (البكاء) لأنّ الإنسان يسجد أولاً، ثم يأخذ بالبكاء خشية لله وتضرعاً.

وتأتي صيغة المضارع لترسم صورة حية لاستمرارية الفعل، وتثبيتها في مخيلة القارئ إيذاناً بجمالها وقدسيتها.

مراعاة الرتبة:

ويقصد بذلك أن يأتي الترتيب وفق قرب المتحدث عنه ومنزلة من صاحب الشأن، فالابن أقرب من الزوجة إلى الإنسان، والزوجة أقرب من الوالدين. يظهر ذلك جلياً في قوله تعالى واصفاً حال الإنسان وذعره يوم الحساب: (يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ)[4].

---

[1] ابن منظور، لسان العرب، مادة (مكث) والمُكْثُ: الأناة واللَّبثُ والانتظار، والمكث الذي لا يعجل في أمره، والمكث: الإقامة مع الانتظار والتلبث في المكان.

[2] الإسراء، (105).

[3] الإسراء، (109).

[4] عبس، (37).

فالابن آخر من يفرّ منه الإنسان عند ذعره وخوفه، نظراً لقربه العاطفي من أبيه.

وقد ظهر هذا المعنى من جديد في سورة الإسراء في قوله تعالى: (وَقُلِ الْحَمْدُ لِلّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَم يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُ وَلِيٌّ مِّنَ الذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا)[1].

فقد تم ترتيب الأفعال المضارعة: (لم يتخذ ولداً) (لم يكن له شريك) (لم يكن له ولي) وفق الرتبة والمنزلة. فالولد أقرب من الشريك، والشريك أقرب من الولي، وقد نزّه الله سبحانه وتعالى نفسه عن هؤلاء الثلاثة، فجاء الفعل منفياً، لتصل إلينا فكرة تفرغه سبحانه عن كل ما يشغل الحاكم عن رعيته، والسلطان عن سلطته، وهذا أدعى للعدل والقسط، وكأنّ في هذا رسالة للحكام بأن لا تشغلهم عن رعيتهم الحياة الخاصة والأولاد، والتنافس من قبل الشركاء على السلطة!!

وحول هذا الترتيب يقول الدكتور علي أبو القاسم: "قُدّم خبر كان (له) في الموضعين اهتماماً بكينونة هذا القيد، لما تقرر من تسلط النفي على المقدم، فالتقديم في الموضعين أظهر الاهتمام بنفي الشرك عن الله سبحانه وتعالى، ونفي الولاية، ولا ذلك يوجد في حقه، ففي الآية السابقة وصف له –سبحانه– بنفي الولد ونفي الشرك ونفي الولي والنصير، وقد ظهر التناسب النظمي بالمزاوجة في التقديم، وبذلك يكون قد تحقق غرضان في آن واحد: الأول معنوي ظهر في الاهتمام، والثاني لفظي يتجلى برعاية الفاصلة[2].

وقد أوضحت الدراسة موقفها من موضوع الفاصلة التي يشير إليها في الفصلين السابقين فليراجع.

---

[1] الإسراء، (111).

[2] ينظر: أبو القاسم، علي، بلاغة التقديم والتأخير في القرآن الكريم، ج3، ص1008.

الأسلوب الحكيم:

ويقصد به تلقي سؤالٍ على صورة لم يقصدها، أو ترك سؤاله والإجابة عن سؤال لم يسأله، أو حمل كلام المتكلم على غير ما كان يقصد ويريد، تنبيهاً على أنّه كان ينبغي له أن يسأل هذا السؤال أو يقصد هذا المعنى[1].

ومن الأمثلة التي تضرب على هذا الأسلوب قوله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلْ مَا أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ﴾[2].

سألوا النبي –ﷺ– عن حقيقة ما ينفقون من ما لهم، فأجيبوا ببيان طرق إنفاق المال، تنبيهاً على أن هذا هو الأولى والأجدر بالسؤال عنه[3].

وقد ظهر هذا الأسلوب في سورة الإسراء في قوله تعالى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُم مِّن الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً﴾[4].

فقد جاءت الإجابة ليست عن الروح مباشرة؛ لأنّهم حتماً سألوا عن ماهيتها وتكوينها، فأجابهم عن مصدر المعرفة بها وهو الله، وكأنّه يقول: ينبغي عليكم ألا تسألوا مثل هذا السؤال.

وقد جاء ترتيب الأفعال دالاً على هذا الأسلوب الحكيم: يسألونك/ قل/ .. وجاءت الإجابة منبئة عن هذه الحكمة، وهذا الأسلوب، ثم كان التعقيب بـ ﴿وَمَا أُوتِيتُم مِّن الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً﴾ إشعاراً بما كان عليهم ألا يفعلوه من اجتناب السؤال.

---

[1] الهاشمي، السيد أحمد، جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، ط12، (د.ت)، ص388.

[2] البقرة، (215).

[3] الهاشمي، جواهر البلاغة، (390).

[4] الإسراء، (85).

التفضل:

وقد يأتي ترتيب الأفعال دالاً على التفضل والتمنن على الإنسان، متقدمة على بعضها الآخر بأسلوب التعميم والتخصيص من ذلك: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً﴾[1].

فقد تقدم فعل التكريم (كرمنا) على الفعل الدال على نقل الإنسان من مكان إلى مكان (وحملناهم) على الفعل الدال على الرزق (ورزقناهم) ليكون لهذا الترتيب دلالتان هما:

1. التفضل على الإنسان وبيان ما فضله الله به على باقي الكائنات من رزق وتنقل وتكريم.
2. التعميم ثم التخصيص: فتكريم الإنسان معنى عام، لم توضح أشكاله وأنواعه، فجاء الفعل اللاحق (وحملناهم) لتخصيص هذه النعمة، وهي حمل الإنسان عن طريق المراكب والسفن، ثم ظهر التخصيص بصورة أدق عند ذكر الرزق والطيبات؛ لأنّ الإنسان أحوج إليهما مما سواهما.

التحذير:

وقد يوحي ترتيب الأفعال وتقدمها على بعضها الآخر بمعنى التهديد والتحذير من ذلك: ﴿أَفَأَمِنتُمْ أَن يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ الْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ثُمَّ لاَ تَجِدُواْ لَكُمْ وَكِيلاً (68) أَمْ أَمِنتُمْ أَن يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخرى فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفا مِّنَ الرِّيحِ فَيُغْرِقَكُم بِمَا كَفَرْتُمْ ثُمَّ لاَ تَجِدُواْ لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِ تَبِيعًا﴾[2].

فالآيات تحذر الإنسان من أن يأمن غضب الله، فيسترسل في المعاصي، فيأتي الفعل (أفأمنتم) مسبوقاً بهمزة الاستفهام، ليفيد الاستنكار المشوب بمعنى التحذير، وكأنّ

---

[1] الإسراء، (70).

[2] الإسراء، (68-69).

المعنى: كيف تأمن أيّها الإنسان أن يُخسف بك جانب البر، ومعلوم أنّ البرّ مكان آمن لعيش الإنسان، ولكن عند العقوبة قد يصبح هذا المكان الآمن محط عقوبة، فيُخسف به، أي يسقط به في البحر، وليس أسهل من غرق القارات (اليابسة) لأنّها؛ محاطة بالماء من كل جانب بقدرة الله. ثم يأتي توالي الأفعال لتوعية الإنسان بالأخطار التي تحيط به من كل اتجاه.

(أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ثُمَّ لاَ تَجِدُواْ لَكُمْ وَكِيلاً) وتقدير الكلام (أم أمنتم أن يرسل عليكم) فالحذف يفهم من السياق، وينص على عقوبة من نوع آخر، وهي إرسال الحاصب (أي الحصباء والرمال التي تهلك المخلوقات).

(أَمْ أَمِنتُمْ أَن يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخرى فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفا مِّنَ الرِّيحِ) فتكرار الفعل يفيد التأكيد على العقوبة، ولكن مع تنوع أشكالها. فالبر إضافة إلى إمكانية خسفه في الماء، قد تهب عليه الرياح فتغرق ساكنيه في البحر.

ويُسمى اختلاف أزمان الفعل أفأمنتم/ أو يرسل/ أم أمنتم/ بالالتفات وهو الانتقال من حالة زمنية إلى أخرى؛ تطرية لذهن السامع كما يذهب السكاكي في مفتاحه[1]، ولكنها لا تخلو من أغراض بلاغية، فبعد أن يشير الفعل إلى الماضي ليدل على أنّ الأمن قد استتب في حياة الإنسان (آمنتم) يأتي الفعل المضارع (أو يرسل عليكم حاصباً) ليوقظه من غفلته، وليوحي بمعنى الاستمرارية، فالخطر كان وما زال وسيبقى محيطاً بالإنسان ما دام بعيداً عن طاعة الله، فيكون الالتفات بين الأفعال دالاً على التحذير (تعددت الأسباب والموت واحدُ).

يقول سيد قطب: "إن البشر في قبضة الله في كل لحظة، وفي كل بقعة، إنّهم في قبضته في البر، كما هم في قبضته في البحر، فكيف يأمنون"[2].

---

[1] السكاكي،أبو يعقوب أكرم عثمان، مفتاح العلوم، مطبعة دار الرسالة، بغداد، ط1، 1981، ص395.

[2] قطب، سيّد، ظلال القرآن، ج13، ص345.

العلة والمعلول:

قد يدل ترتيب الأفعال داخل الآيات الكريمة على مراعاة العلة والمعلول، أي ذكر الأسباب والنتائج في عمل الإنسان من ذلك: (انظُرْ كَيْفَ ضَرَبُواْ لَكَ الأَمْثَالَ فَضَلُّواْ فَلاَ يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلاً)[1].

فضربهم الأمثال للنبي إنما ليثبتوا بطلان كلامه، وكان هذا سبباً في ضلالهم، من ذلك ذكرهم للرفات والعظام، واستحالة إحيائها (في معتقدهم) فجاء الفعلان ضربوا/ فضلوا/ مرتبين بحسب العلة والمعلول أي أن ضربهم للأمثال سبب في ضلالهم.

التعميم ثم التخصيص:

وقد يأتي ترتيب الأفعال في الآيات دالاً على العموم ثم الخصوص، أي ذكر حالة عامة ثم العودة لتوضيحها وتخصيصها، من ذلك ما ورد في الحديث عن بر الوالدين: (وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا)[2].

ففعل الأمر (اخفض) جناح الذل دال على حالة البرّ والتواضع أمام الأبوين، وهي حالة عامة لا نعرف كيف يكون أداؤها؟ ولكن الفعل (وقل) رب ارحمهما. خصص عمل البر بالدعاء لهما، والتفرغ بالرحمة، وبذلك جاء الخاص بعد العام، ولا يعني ذلك أنّ بر الوالدين يقتصر على الدعاء لهما، ولكنه ذكر بعض أشكاله، وأبرزها الدعاء.

التقديم والتأخير في الأسماء:

وسيعرض البحث لوقوع ظاهرة التقديم والتأخير بين الأسماء في السورة، سواء أكانت هذه الأسماء جزءاً من الجمل الاسمية (المبتدأ والخبر) أم جمل النواسخ بجميع أشكالها، أو حتى متعلقات الجمل كالمفاعيل والحال والنعت وغيرها. وقد تم استثناء أشباه الجمل في هذا الفصل بعد أن خصص لها فصل سابق، نظراً لكثرة ورودها في السورة.

---

[1] الإسراء، (48).

[2] الإسراء، (24).

وقبل العرض للشواهد، لابدّ من العودة تأكيداً على رفض فكرة تحكّم الفاصلة القرآنية بترتيب الأسماء والأفعال، وتقديمها وتأخيرها؛ لأنّ الفاصلة –وبقدرة الله– يمكن تحقيقها دون أن تمس الأغراض البلاغية للتقديم والتأخير.

وإن يعجب الدارس، فإنه يعجب لذهاب جهابذة اللغة إلى تعليل ما ورد في الآيات القرآنية من تقديم وتأخير، رعاية للفاصلة، فهذا أبو حيان الأندلسي صاحب (البحر المحيط) يعلل قوله تعالى: (وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ)[1].

وهو ترتيب جاء على غير القياس النحوي؛ لأنّ (أحد) في الآية الكريمة وقعت نكرة فكان الأصل في الترتيب: (ولم يكن أحد كفواً له). فعلل ذلك بقوله: "وتقدم (الجار والمجرور(له)) على (كفواً) للاهتمام به، إذ فيه ضمير الباري تعالى، وتوسط الخبر وإن كان الأصل التأخر؛ لأن تأخر الاسم هو فاصلة، فحسن ذلك"[2].

فهو يرى أن تأخر اسم كان (أحد) إنما جاء لرعاية الفاصلة، كما أنّ شبه الجملة (له) قد تقدم للاهتمام به لأنّه دال على ذات الله سبحانه، وهذا مما يؤخذ على هؤلاء العلماء، إذ كيف يعتقدون أنّ ثمة ليّاً لأعناق الألفاظ رعاية للفاصلة القرآنية؟ كما يؤخذ عليهم اقتصارهم على القول بأنّ التقديم والتأخير قد تم (للاهتمام) دون أن يوضحوا نوع هذا الاهتمام وغايته، فقد كان حرياً به أن يحدد غرض الاهتمام كالتعظيم للذات الإلهية أو التخصيص أو غيره.

ويحضرنا هنا تعليل لابن الأثير لظاهرة التقديم والتأخير في قوله تعالى: (وَالْتَفَّتِ السَّاقُ بِالسَّاقِ إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمَسَاقُ)[3]. فهو يرى أنّ تأخر المبتدأ (المساق) رغم تعريفه، إنّما جاء مراعاة لحسن النظم، يقول: "هذا روعي فيه حسن النظم، لا لاختصاص في تقديم الظرف، وفي القرآن مواضع كثيرة من هذا القبيل، يقيسها غير العارف بأسرار الفصاحة على مواضع، أخرى وردت للاختصاص وليست كذلك"[4].

---

[1] الإخلاص، (4).

[2] الأندلسي، أبو حيان، البحر المحيط، ج8، ص530– 531 .

[3] القيامة، (29).

[4] ابن الأثير، المثل السائر، ج2، ص43.

فمراعاة حسن النظم تعبير لا يليق بالقرآن الكريم، لا سيما إذا قُصد به ترتيب الكلمات على غير رتبتها النحوية، لتحقيق هذا النظم، فإنّ الألفاظ قد تتقدم وتتأخر لغاية بلاغية، والبلاغة مطلب سامٍ، ولكن حسن النظم زينة وكمال.

تقديم وتأخير الأسماء في مطلع السورة:

لقد بدأت سورة الإسراء بصيغة التسبيح (سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ) فـ (سبحان) صيغة إنشائية غير طلبية؛ لأنّها لا تحمل معنى الصدق والكذب ولكنها تحمل معنى التعجب والتقديس والتنزيه، فجاء افتتاح السورة "ليثير مشاعر الإنسان وتوجيهه إلى حدث عظيم، ينبغي أن يكون مثار إعجاب الإنسان بقدرة خالقه، وتنزيهه عن كل نقص وعجز، ألا وهو الإسراء الذي يحمل طابعاً إعجازياً، ينبغي للإنسان الإقرار به بداهة، دون التشكيك بتفاصيله وتعقيداته"[1].

ومعلوم أنّ أهل البلاغة قد قسموا الجمل في اللغة العربية إلى جمل إنشائية، وأخرى طلبية، على خلاف ما فعل النحاة حين قسموها إلى فعلية واسمية.

ولما كانت الجمل الخبرية –هي ما احتملت الصدق والكذب– تملأ أرجاء القرآن؛ لأنّه مليء بالأخبار والأنباء –ولا كذب فيه– بينما كانت الجمل الإنشائية ملأى بمعاني الانفعال والتعجب، وكل ما من شأنه تحريك عواطف الإنسان. فقد تراوحت الجمل القرآنية ما بين الخبر والإنشاء، فبلغت في سورة الإسراء (100) جملة خبرية و (88) جملة إنشائية[2].

فالنسب تكشف عن تقارب في المراوحة بين الأسلوبين؛ لأنّ القرآن يخاطب عقل الإنسان ووجدانه، لذا اقتضي التنويع.

ويأتي تعبير (سبحان الذي) إنشائياً غير طلبي، يستدعي معنى التنزيه والتقديس للذات الإلهية، وهو في علم النحو نائب عن المفعول المطلق، ولكن لأن عامله محذوف تقديره (سبحْ تسبيحاً) لذا اقتُضي إعرابها على أنّها نائبٌ عن المفعول المطلق وليس مفعولاً مطلقاً.

---

[1] سلطان، فاضل ضايف، سورة الإسراء (دراسة بلاغية دلالية)، ص45.

[2] سلطان، فاضل ضايف، سورة الإسراء (دراسة بلاغية دلالية)، ص64.

ويظهر التقديم في اللفظة اللاحقة (الذي) فهو اسم موصول يدل على المبهمات كغيره من الأسماء الموصولة، وتقدم الأسماء الموصولة يفيد غرض التشويق لما بعدها، كقول أبي العلاء المعري:

والـــذي حـــارت البريـــة فيـــه حيـوانٌ مُسْـتَحدثٌ مـن جمـادِ[1]

فقد أفاد التشويق، بعدما تشوقت النفس لمعرفة من هذه صفته، فجاءت الشطرة الثانية لتوضيح صفات هذا الاسم المبهم (الذي) ليكون هو (الإنسان) وسائر ما خلق الله من تراب، فنفخت فيه الروح فصار حيواناً.

وفي مطلع السورة الكريمة (سبحان الذي أسرى بعبده ليلاً) جاء التشويق للاسم الموصول (الذي) ثم تجلت الصورة من خلال الفعل (أسرى) وهو صلة الموصول، حيث وضحّ سر التقديس والتنزيه، وهو عظمة الإسراء وإعجازه.

والحقيقة أنّ الأسماء في السورة الكريمة تتوزع بين الجمل الخبرية والإنشائية على حد سواء لذا آثر البحث دراستها وفق الأغراض البلاغية سواء وقعت في جمل خبرية أم إنشائية، باحثاً في تقدمها وتأخرها على بعضها الآخر، أو تقدمها على ما تعلق به من الأفعال، أو في آية على آية، أو مقارنة تقدمها وتأخرها في سورة عن سورة.

أغراض التقديم والتأخير من خلال الأسماء:

وقد أدى تقدم وتأخر الأسماء في السورة عن بعضها الآخر أغراضاً بلاغية كثيرة أهمها:

مراعاة السبق:

(مَّن كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاء لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلاهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا)[2].

---

[1] المعري، أبو العلاء، شرح ديوان حماسة أبي تمام المنسوب لأبي العلاء المعري، تحقيق: حسين محمد نقشة، دار الغرب الإسلامي، بيروت–لبنان، (د.ط)،1411هـ–1991م،

[2] الإسراء،(18).

(وَلاَ تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلاَ تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا)[1].

(لاَّ تَجْعَل مَعَ اللّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولاً)[2].

(وَلاَ تَجْعَلْ مَعَ اللّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتُلْقَى فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدْحُورًا)[3].

ففي الأنماط التالية: مذموماً مدحوراً/ ملوماً محسوراً/ مذموماً مخذولاً/ ملوماً مدحوراً/ نسق تركيبي متشابه؛ فهي أحوال أتت لبيان هيئة أصحابها من الناس ممن اختاروا الدنيا على الآخرة، أو اتخذوا مع الله شريكاً، أو اختاروا طريق الإسراف والتبذير.

فجميعها أنماط نحوية (أحوال) تفيد غرض الذم، غير أنّ تقدم الألفاظ على بعضها الآخر يعكس غاية بلاغية أخرى لا بدّ من تبيينها. فتقدم (مذموماً) على (مدحوراً) في الآية الأولى رُتّب حسب السبق؛ لأنّ الإنسان المخطئ يُذم أولاً ثم يُدْحر، (أي يُقصى ويبعد) وبذلك تكون الآية قد راعت الترتيب بالسبق.

ونجد هذا المعنى في الحالة الثانية (فتقعد ملوماً محسوراً) عند الحديث عن المُقتّر (البخيل) والمسرف المبذر. فهو يُلام أولاً من قبل من حوله، حين يضيع ماله ثم يتحسر ثانياً، كردة فعل على ما وقع معه، فيكون الترتيب بحسب السبق، كالآية التي سبقتها.

وفي الحديث عن الشرك بالله نجد المشرك وقد قعد (مذموماً مخذولاً) فالحال تصف المشرك، وقد ذُم أولاً ثم خُذل، أي لم يجد من ينصره، لا سيما عند الحساب. فمراعاة السبق واضحة في ترتيب هذين الاسمين كحال الآيتين السابقتين.

وكذا الترتيب في الآية الرابعة (فتلقى في جهنم ملوماً مدحوراً).

وقد نجد هذه الغاية في أسلوب المدح والثناء، لا سيما عند الحديث عن صفات الله سبحانه: (إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاء وَيَقْدِرُ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا)[4].

---

[1] الإسراء، (29).

[2] الإسراء، (22).

[3] الإسراء، (39).

[4] الإسراء، (30).

فقد تقدم ذكر (الخبرة) على (البصيرة) مراعاة للسبق؛ لأنّ الخبرة تسبق البصيرة، فمن اكتسب الخبرة صار بصيراً.

وفي قوله تعالى واصفاً نفسه: (إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا)[1] نجد الغاية ذاتها (السبق) فقد غفر؛ لأنّه حليم، فالتجاوز عن أخطاء الناس يستلزم حلماً، وبعدها تكون المغفرة.

ويظهر الترتيب للسبق في آيات أخرى من مثل قوله تعالى: (وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ)[2] فتقدم ذكر الليل على ذكر النهار؛ لأنّ الليل أسبق في الوجود من النهار، وكما تروي كتب التفسير، فإنّ الظلمة كانت أولاً ثم خلق الله النور[3].

ومن ذلك ايضاً: (إِذاً لَّأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لاَ تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا)[4]. فقد تقدم ذكر الحياة وضعف الممات؛ لأنّ الحياة تكون أولاً ثم يأتي الموت. والخطاب موجه للنبي –ﷺ– أي "لو ركنت إليهم لضاعفنا لك عذاب الدنيا، وعذاب الآخرة"[5].

ومن ذلك أيضاً: (وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلْطَانًا نَّصِيرًا)[6]. فقد تقدم ذكر المدخل على المخرج؛ لأنّ الدخول يكون أولاً ثم يأتي الخروج.

مراعاة السببية:

من ذلك قوله تعالى: (وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلْطَانًا نَّصِيرًا)[7].

---

[1] الإسراء، (44).

[2] الإسراء، (12).

[3] ينظر: القرطبي، ج9، ص227.

[4] الإسراء، (75).

[5] الصابوني، صفوة التفاسير، ج2، ص171.

[6] الإسراء، (80).

[7] الإسراء، (80).

يظهر في هذا الدعاء الذي يتوجه به المؤمن إلى ربه طالباً المعونة والمساعدة، أنّه روعي فيه معنى السببية في قوله: (وَاجْعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلْطَانًا نَّصِيرًا) تقدم طلب السلطة على طلب النصرة؛ لأنّ من يمتلك السلطة يستطيع النصرة والمساعدة، فالأولى سبب في الثانية.

وقد يلاحظ القارئ أنّ للترتيب عناية في التدرج والتنقل بذهن المستمع بصورة تصعيدية، من الأقل إلى الأكثر، حتى يفهم ويدرك المقصود من الخطاب، فمن ذلك قوله تعالى في الحديث عن بر الوالدين: (فَلاَ تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلاَ تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلاً كَرِيمًا)[1].

فقد تدرج من ذكر العقوق الأقل وهو كلمة (أف) الدالة على التضجر بالوالدين إلى العقوق الأكبر وهو نهر الوالدين والصياح عليهما، ليبين أنّه (أي العقوق) بجميع أشكاله ودرجاته محرم حرمة مغلّظة تأتي في درجتها بعد الشرك بالله.

مراعاة التدرج من الأدنى إلى الأعلى:

قد يظهر في ترتيب الجمل الفعلية غايات بلاغية أخرى مثل التدرج من الأدنى إلى الأعلى ليتسق ذلك مع مضمون الخطاب من ذلك: (قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولاً)[2].

وقد جاء هذا الخطاب عقب ذكر طلبات تعجيزية للمشركين، أرادوا من خلالها اختبار صدق نبوة النبي –ﷺ– كبيت من زخرف، أو جنّة من أعناب، أو إحضار الله والملائكة، فجاء رد النبي متعجباً (هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولاً) وقد تقدم ذكر بشريته (بشراً) على رسالته (رسولاً) بياناً لضعفه وإنسانيته، وترقياً من الأدنى إلى الأعلى ليوضح أنّه قبل كل شيء إنسان محدود القدرة والإمكانية.

---

[1] الإسراء، (23).

[2] الإسراء، (93).

التدرج من الأعلى إلى الأدنى:

وقد تنقلب صورة التعبير فتبدأ الآية بذكر الأعلى، ثم الأدنى، لبيان علو منزلة صاحب الوصف، من ذلك: (قُل لَّوْ كَانَفِي الأرض مَلآئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِممِّنَ السَّمَاء مَلَكًا رَّسُولاً)[1].

ففي هذا الخطاب رد على من شكك في نبوة الرسول -ﷺ- بدعوى أنّه بشري من البشر، فكيف يكون رسولاً؟ فجاء الرد أنّ البشر يلزمهم نبي بشري من جنسهم، كما أنّ الملائكة لو كانت تسكن الأرض؛ لأرسل إليهم ملاكاً من جنسهم؛ لأنّ هذا أحرى للتفاهم بينهم.

وقد جاء ترتيب اللفظين (ملكاً رسولاً) مراعياً التدرج من الأعلى إلى الأدنى؛ لأنّ الملائكة أعلى رتبة من الرسل. وذلك بياناً لعظمة المتقدم، وعلو منزلة الملاك لو هبط على هيئة رسول.

التدرج من الأقوى إلى الأضعف:

ويظهر ذلك في مواضع عديدة منها قوله تعالى: (وَقَالُواْ أَئِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا)[2]. فقد استنكر المشركون قضية البعث بعد الموت، وانبعاث العظام والرفات إلى الحياة من جديد، وقد تقدم ذكر العظام إلى الرّفات؛ لأنّ العظم أقوى من الرفات (وهي ما تفتت وبلي من جسم الميت فكان التدرج من الأقوى إلى الأضعف، مراعاة للأقوى، والأكثر وضوحاً في الرؤيا عند المستنكرين.

وحول التقديم والتأخير في هذه الآية أشار الدكتور علي أبو القاسم في دراسة له حول أسلوب التقديم والتأخير في القرآن الكريم، فقال مقارناً بين هذه الآية وآية مشابهة لها في سورة الرعد جاء فيها: (وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَئِذَا كُنَّا تُرَابًا أَئِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ)[3].

---

[1] الإسراء، (95).

[2] الإسراء، (49).

[3] الرعد، (5).

ورد في الإسراء قبل ذلك قوله تعالى: (وَقَالُواْ أَئِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا) [1].

يقول: "ما في هذه الآية من أغراض ناشئة بسبب اقتران الاستفهام والتقديم والتأخير والحذف، مستنبط من آية أخرى في سورة الرعد، ففي الاستفهام إنكار واستبعاد، وفي تقديم الظرف اهتمام بتقوية إنكار واستبعاد المنكر، وهو البعث معلقاً بظرفه المذكور، فالظرف هو سبب الاستبعاد ودافع التعجب، وحذف الفعل المنكر إيجاز في الكلام، واكتفاء بما دل عليه (أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا) وإبراز لتحقيق استبعاد مدلول المحذوف في اعتقادهم[2].

وقد تقدم هذا الحديث عن ضرب الأمثال بالعظام والرفات فعل أمر يفيد التشويق وهو قوله تعالى: (انظُرْ كَيْفَ ضَرَبُواْ لَكَ الأَمْثَالَ فَضَلُّواْ فَلاَ يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلاً) [3].

يقول الدكتور المسيري في كتابه (دلالات التقديم والتأخير في القرآن الكريم): "وهذا التقديم (الفعل انظر) من أجل تهيؤ الناظر إليها، وصرف نفسه عن كل نظر إلى غيرها، وذلك لما فيها من فتنة وضلال، الأمر الذي يدعو إلى إمعان النظر فيها، حتى يتوقى الناظر ما فيها من مكر وكيد، وأفادت هذا التشوق لمعرفة ما أمر بالنظر إليه"[4].

ويعدّ من هذا الباب أيضاً قوله تعالى: (وَإِن مِّن قَرْيَةٍ إِلاَّ نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا كَانَ ذَلِك فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا) [5]. فقد تقدم ذكر الهلاك (مهلكوها) على ذكر العذاب (معذبوها) لأنّ الهلاك أقوى من العذاب، فقد يعني الموت والنهاية، ولكن العذاب قد يكون رحيماً بحسب مقداره، فتدرج من ذكر الأقوى إلى الأضعف

---

[1] الإسراء، (49).

[2] ينظر: أبو القاسم، علي، بلاغة التقديم والتأخير في القرآن الكريم، ج3، ص1131.

[3] الإسراء، (48).

[4] المسيري، منير محمود، دلالات التقديم والتأخير في القرآن الكريم، مكتبة وهبة، ط1، 1426هـ، 2005م، ص468.

[5] الإسراء،(58).

للتخويف، ولبيان أنّ معظم القرى الفاسدة، قد لاقت الهلاك الجذري وبادت، وأنّ خيار التعذيب كان أقل.

التدرج من الأضعف إلى الأقوى:

ويجد الدارس أنّ الألفاظ قد تتدرج لتدل على الأضعف ثم الأقوى كقوله تعالى: (قُل كُونُواْ حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا)[1]. وذلك في معرض الحوار حول البعث، حين استنكروا بعث العظام والرفات فيخاطبهم النبي -ﷺ-: بل إن الله قادر على بعث البشر، ولو كانوا حجارة أو حديداً، لا يعجزه شيء، وستعود الروح لتدب في أجسادهم مهما كانت مادتها. فتدرج بذكر هذه المواد فبدأ بالحجارة وهي الأضعف من الحديد قوة، ثم ذكر الحديد لأنّه الأقوى وقد ورد في ذكره، قوله تعالى: (وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ)[2].

وكان سبب التدرج هو التحدي بين المخاطبين، فإنّ الذي يتحدى المخاطبين يصعّد في قوة خطابه، كما يصعّد في قوة مضمونه، ثقة منه بقوته وضعف من يواجهه.

التقديم للشرف:

ووفق هذا الغرض نجد الترتيب وقد تم وفق رتبة المتقدم، فالأشرف يأتي ذكره أولاً، من ذلك قوله تعالى في تقديم السمع على البصر: (سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ)[3].

وقد تقدم السمع على البصر في اثنين وثلاثين موضعاً من القرآن الكريم كقوله تعالى[4]:

(وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُواْ بِالْعَدْلِ إِنَّ اللّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِ إِنَّ اللّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا)[5].

---

[1] الإسراء، (50).

[2] الحديد، (25).

[3] الإسراء، (1).

[4] ينظر: أبو زيد، نايل ممدوح، دراسات في إعجاز القرآن، مطبعة الأزهر، مؤتة، ط2، 2013م، ص150.

[5] النساء، (58).

(لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ)[1].

(لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ[2].

(قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاء وَالأرض أَمَّن يَمْلِكُ السَّمْعَ والأَبصَارَ وَمَن يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ)[3].

(مَا كَانُواْ يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ وَمَا كَانُواْ يُبْصِرُونَ)[4].

وقد وقف المفسرون كثيراً عند هذا التقديم والتأخير فخرجوا بفوائد منها:

1. تبدأ وظيفة السمع بالعمل قبل وظيفة الإبصار فإنّ الجنين يسمع قبل أن يرى كما أثبتت تجارب العلماء.
2. أنّ تعلّم النطق يتم عن طريق السمع بالدرجة الأولى، وإذا ولد الإنسان وهو أصم، صعب عليه الانسجام، وحدث له قصور عقلي وتردٍ في مدركاته.
3. أنّ مدى السمع أقل من مدى الرؤية؛ لذلك خاطب الله موسى وهارون: (إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى)[5]. فالذي يسمعك يكون في العادة قريباً منك بخلاف الذي يراك وهو بعيد عنك.
4. أنّ السمع لا يمنعه الحاجز المادي من أداء عمله بخلاف البصر، فإنّه تمنعه الحواجز من إدراك الأشياء.
5. أنّ السمع شرط من شروط النبوة، فالآيات تسمع من النبي، ومن خلال السمع تتكون القناعات لدى الإنسان في عقله وقلبه، حتى وإن لم يكن مبصراً.
6. ليس في كتاب الله آية قدمت فيها صفة الله البصير على السميع، بل جميع الآيات جاء فيها تقدم السميع على البصير[6].

---

[1] الشورى، (11).

[2] المجادلة، (1).

[3] يونس، (31).

[4] هود، (20).

[5] طه، (46).

[6] ينظر: أبو زيد، نايل، دراسات في إعجاز القرآن، ص151، السامرائي، التعبير القرآني، ص55-56.

غير أنّ مواضع قليلة قدم فيها البصر على السمع في القرآن، لا سيما عند الحديث عن اليوم الآخر من ذلك قوله تعالى: (وَلَوْ تَرَى إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُو رُؤُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ)[1]. وقدم فيها البصر على السمع؛ لأنّ الإنسان بعد موته ووقوفه للحساب يبصر ما لم يبصره في الحياة الدنيا، فالبصر هنا يعني اليقين والإدراك وهذا مصداق لقوله تعالى مخاطباً الإنسان عند الحساب: (لَقَدْ كُنتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَاءكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ)[2].

ومن باب التقدم للشرف قوله تعالى: (قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَن يَأْتُواْ بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لاَ يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا)[3].

فقد تقدم لفظ الإنس على لفظ الجن في هذه الآية الكريمة، تشريفاً للإنس على الجن في مجال البلاغة، فإنّ التحدي في الآية واضح أنّه حول بلاغة القرآن، كما أنّه واضح من خلال الآية أنّ الإنس أكثر عناية باللغة من الجن، ودليل ذلك أنّ الله تعالى حين خلق آدم، تحدى به الملائكة والجن في مجال اللغة، فقال: (وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاء كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلاَئِكَةِ فَقَالَ أَنبِئُونِي بِأَسْمَاء هَؤُلاء إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ(31) قَالُواْ سُبْحَانَكَ لاَ عِلْمَ لَنَا إِلاَّ مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ(32) قَالَ يَا آدَمُ أَنبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ فَلَمَّا أَنبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالأرض وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ)[4].

على أنّ سوراً أخرى قد ذكرت الجن مقدمين على الإنس، من مثل قوله تعالى: (وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ)[5]. فجاء التقدم للسبق؛ لأنّهم خلقوا أولاً.

---

[1] السجدة، (12).

[2] ق، (22).

[3] الإسراء، (88).

[4] البقرة، (31).

[5] الذاريات، (56).

وفي قوله تعالى: (وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ)[1]. قدم ذكر الجن على الإنس لمناسبة السياق، وفي ذلك يقول أحد الدارسين: "ولا غرابة في أن يقدم القرآن ذكر الجند من الجن، على الجند من الإنس، فجنود الجن يتميزون بقوتهم وشدتهم وصلابتهم وبسالتهم على غيرهم، والذي يدل على هذه القوة والشدة وسرعة الحركة، إجابة بعضهم حين طلب منه نبي الله سليمان –عليه السلام– أن يأتيه بعرش ملكة سبأ قبل قدومها إليه، كان جواب واحد منهم ما أخبر عنه القرآن[2]:(قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ الْجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ)[3].

فالتقديم والتأخير يكون بحسب السياق والمناسبة، لذا ما قد يتقدم في سورة، قد يتأخر في سورة أخرى، ليدل ذلك على أنّ الظاهرة غير عبثية، بل يقع كل لفظ في مكانة الصحيح لعبرة ودلالة!!

وقد علل السيوطي تقدم اللفظ في موضع وتأخره في موضع آخر من القرآن بقوله: "قد يقدم لفظ ويؤخر في آخر، ونكتة ذلك إمّا لكون السياق في كل موضع يقتضي ما وقع فيه ما تقدمت الإشارة إليه، وإمّا لقصد البداءة، والختم به، للاعتناء بشأنه، كما في قوله: (يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ)[4] وإمّا لقصد التفنن في الفصاحة، وإخراج الكلام على عدة أساليب، كما في قوله تعالى: (وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّداً وَقُولُوا حِطَّةٌ)[5]. [5]. وفي موضع آخر[6]:(وَقُولُوا حِطَّةٌ وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا)[7].

---

[1] النمل، (17).

[2] أبو زيد، نايل، دراسات في إعجاز القرآن، ص148– 149.

[3] النمل، (39).

[4] آل عمران، (106).

[5] البقرة، (58).

[6] ينظر السيوطي، الإتقان، ج3، ص40.

[7] الأعراف، (161).

وقد يكون تقدم ذكر (السموات) على (الأرض) في معظم الآيات للغاية نفسها (الشرف) نظراً لعظمة ساكنيها (الله وملائكته) وقد يكون لعلوها. أو لأنّ ما غاب فيها عن العين أعظم، أو لتعدد طبقاتها فاستحق ذكرها التقديم من ذلك:

(تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالأَرض وَمَن فِيهِنَّ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ) [1]. حيث يظهر من خلال السياق أنّ تعداد السموات سبب من أسباب تعظيمها، حيث يبلغ سبعاً، بينما ظهرت (الأرض) دالة على المفرد.

على أنّ الأرض ترد في سور أخرى سابقة على السماء، من مثل قوله تعالى: (وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الأرض وَلاَ فِي السَّمَاء وَلاَ أَصْغَرَ مِن ذَلِكَ وَلا أَكْبَرَ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ) [2].

وقد علل الزمخشري هذا التقديم (للأرض) على (السماء) فقال: "فإنّ قلت لِمَ قدمت الأرض على السماء؟ بخلاف قوله تعالى في سورة سبأ: (وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَالِمِ الْغَيْبِ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الأرض وَلَا أَصْغَرُ مِن ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ) [3]. قلت: حق السماء أن تُقدم على الأرض، ولكنه لما ذكر شهادته على شؤون أهل الأرض، وأحوالهم وأعمالهم، ووصل بذلك قوله: (لا يعزب عنه) [4]، لاءم ذلك أن قدم الأرض على السماء على أنّ العطف بالواو حكمه حكم التثنية" [5].

---

[1] الإسراء، (44).

[2] يونس، (61).

[3] سبأ، (3).

[4] ابن منظور، لسان العرب، مادة (عزب) أعزب عنه حلمِه يعزب عزوباً أي: ذهب وقوله تعالى: (عَالِمِ الْغَيْبِ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ) معناه لا يغيب عن علمه شيء.

[5] ينظر: الزمخشري، الكشاف، ج3،ص567.

فالزمخشري ينص على نظرية السياق، وأنّ اللفظ في ترتيبه يراعي المقام الذي يرد فيه، لأنّ الحديث في الآية السابقة عن شؤون أهل الأرض وأعمالهم، فناسبهم تقديم ذكر (الأرض) على السماء.

التقدم حسب الرتبة:

وقد سبق ووضحنا من خلال الحديث عن تقدم الأفعال وتأخرها، أنّ القرآن يراعي رتبة من يتحدث عنهم، فالولد أقرب من الزوجة إلى الإنسان، والزوجة أقرب من الوالدين، والوالدان أقرب من الإخوة، مما يوضح رتب صلة الرحم، ويبين مراحل فرار الإنسان من هؤلاء جميعاً يوم الحساب.

وقد راعى القرآن رتبة صلات الرحم من جانب آخر، وهو أداء الحقوق المالية، من نفقة وزكاة، وميراث وغيرها، وذلك في قوله تعالى: (وَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا)[1].

فقد تقدم ذكر القريب –ذا القربى– على المسكين، وقد يكون بعيداً عن صلة الرحم، ثم ذكر ابن السبيل، وهو الغريب المقيم مؤقتاً في بلد ما، للعمل أو التعليم أو غيره، فجاء الترتيب منطلقاً من الحلقة الأضيق إلى الحلقة الأوسع في التكافل الاجتماعي، مما يضمن مجتمعاً سوياً متكاتفاً في مجال حقوق الإنسان وتطلعاته.

تقديم مصلحة الإنسان الضرورية على ما سواها:

وفي ذلك مراعاة للحاجات الملحة عند الإنسان، وتقديمها على ما سواها، من ذلك قوله تعالى: (وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاء وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ)[2]. فقد تقدم ذكر (الشفاء) على ذكر (الرحمة) لأنّ الإنسان حين يكون معتلاً فإنّه أحوج إلى الشفاء؛ لأنّها حالة خاصة وملحة، بينما تكون الرحمة عامة تطال جميع أحوال الإنسان، فجاء التخصيص سابقاً على التعميم لإلحاحه ومراعاته لمصالح البشر.

---

[1] الإسراء،(26).

[2] الإسراء، (82).

ومن ذلك أيضاً قوله تعالى: (وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِتَبْتَغُواْ فَضْلاً مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُواْ عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ)[1].

فقد جعل الله في تعاقب الليل والنهار نعمة أنعم بها على الإنسان، فالليل للراحة، والنهار لطلب الرزق. وذكر نعمة أخرى وهي تمكين الإنسان من حساب الزمن، فقدم ذكر (السنين) على (الحساب) لأنّ الإنسان أحوج إلى معرفة (السنين) وكم مضى منها، فهذا أولى من الحسابات الفلكية؛ لأنّ الأخيرة لا يأبه بها إلا علماء الفلك بينما يلتفت العامة إلى التأريخ البسيط.

ومن ذلك أيضاً تقديم ذكر البر على البحر في قوله تعالى: (وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ) [2].

فقدم ذكر البر على البحر؛ لأنّ الإنسان أحوج إليه، ولأنّ معظم حياته يقضيها في البر لا البحر، فجاء الترتيب مراعياً مصلحته ومنفعته.

مراعاة القرب المكاني:

ويظهر مراعاة القرب المكاني، خلال الآيات أنّ التقديم والتأخير قد يكون له غاية إنسانية أخرى، وهي مراعاة القرب المكاني، كي يتمكن الإنسان من فهم واستيعاب ما يدور حوله من ذلك قوله تعالى: (وَلاَ تَمْشِ فِي الأرض مَرَحًا إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الأرض وَلَن تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولاً) [3].

وهو نهي عن الخيلاء والتكبر، فإنّ المتكبر لن يستطيع بخيلائه أن يخرق الأرض –أي أن يصنع فيها نفقاً– من وطء قدميه وتبختره، كما أنّه لن يستطيع أن يضاهي الجبال في طول قامته؛ لأنّه أقصر منها جميعاً. وفي هذا غض من شأن المتكبر، ودعوة له للتواضع. وقد تقدم ذكر الأرض على الجبال؛ لأنّها أقرب لخطوات

---

[1] الإسراء، (12).

[2] الإسراء، (70).

[3] الإسراء، (37).

الإنسان وحركته، كما أنّها أقرب لبصره وتأمله، فهو يراها كل لحظة. وهذا أدعى لفهمه واستيعابه.

التعظيم:

ويظهر هذا الغرض من خلال الابتداء بالأسماء الدالة على العظمة، كذكر الله سبحانه أو القرآن الكريم، من ذلك: (رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ إِن يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ)[1].

فاللفظ (ربكم) وإن كان قد تقدم للرتبة النحوية ووجوبها إلّا أنّ لتقديمه غاية واضحة لكل متأمل، وهي تعظيم الذات الإلهية وتبجيلها.

ومن ذلك أيضاً: (وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنزِيلًا)[2] فتقدم المفعول به (قرآنا) على فعله (فرقناه) إنّما كان لغاية جلية، وهي تعظيم هذا الكتاب وتقديسه.

وحول تقديم هذا المفعول (قرآناً) يقول الزمخشري: قرآناً: منصوب بفعله يفسره (فرقناه) أي جعلنا نزوله مفرقاً منجماً، وقيل لم ينزل في يومين أو ثلاثة، بل امتدَّ نزوله عشرون سنة[3].

كذلك في قوله تعالى: (مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَى)[4] فذكر المسجد الحرام قبل المسجد الأقصى دال على عظمة هذا المسجد ومكانته المقدسة لدى المسلمين، "فهو أجل المساجد على الإطلاق"[5].

التخصيص:

وهذا التعبير وإن كان فضفاضاً، لا يعلم القارئ غايته، إذا توقف الدارس عليه دون شرح، ودون توضيح ما وراءه من أغراض، إلا أنّ بعض الأسماء ترد متقدمة لتخصيصها دون غيرها بمعنى معين، أي أنّ المعنى (نحن وليس غيرنا أخص بكذا

---

[1] الإسراء، (54).

[2] الإسراء، (106).

[3] ينظر، الزمخشري، الكشاف،ج 2، ص699.

[4] الإسراء، (1).

[5] السعدي، عبد الرحمن، تيسير الكريم الرحمن، ص460.

وكذا) ولكن ينبغي تقييد ذلك بتوضيح الغاية، من ذلك قوله تعالى: (إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفَى بِرَبِّكَ وَكِيلاً) [1].

وهو خطاب موجه للشيطان (لعنه الله) فيحذره الله سبحانه من غواية البشر، ثم يخصّ عباده بالذكر (إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ). وكان يمكن أن يقال: (إنه ليس لك سلطان على عبادي) وذلك في اللغة العادية لكنه قدّمهم للاختصاص والعناية بهم في معرض تحذير الشيطان من الغواية، ومن ذلك قوله تعالى: (قُل لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَآئِنَ رَحْمَةِ رَبِّي إِذاً لَّأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الإِنفَاقِ)[2].

فتقديم الضمير المنفصل (أنتم) لافت للنظر، وكان مقتضى القول: (قل لو تملكون خزائن رحمة ربي) لكنه قدم (أنتم) للاختصاص، أي أخصكم بالقول، وذلك لغرض التنديد والتعريض ببخلهم وإمساكهم.

ومن ذلك أيضاً: (رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ إِن تَكُونُواْ صَالِحِينَفَإِنَّهُ كَانَ لِلأَوَّابِينَ غَفُورًا) [3].

فقد اختص الله نفسه بالعلم (ربكم) وبمعرفة ما يدور في أفئدة الناس دون غيره، وهو تخصيص غايته التعظيم، ولهذه الغاية قدم قبل أن يكون ذلك مراعاة لرتبة النحو ومعطياته، وكان يمكن أن يقال: (يعلم ربكم بما في نفوسكم) لكنه قُدّم تخصيصاً وتقديساً لذكره.

التحدي وإظهار النِّدِّية:

وهو أسلوب لطيف، يظهر في السورة من خلال خطاب موسى وفرعون وتحاورهما حول وجود الله، وذلك في قوله تعالى: (وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى تِسْعَآيَاتٍ بَيِّنَاتٍ فَاسْأَلْ

---

[1] الإسراء، (65).

[2] الإسراء، (100).

[3] الإسراء، (25).

بَنِي إِسْرَائِيلَ إِذْ جَاءهُمْ فَقَالَ لَهُ فِرْعَونُإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا مُوسَى مَسْحُورًا(101)قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنزَلَ هَؤُلاء إِلاَّ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالأرض بَصَآئِرَ وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا فِرْعَونُ مَثْبُورًا)[1].

فقد ورد في الآيتين الكريمتن تعبيران لافتان للدارس، بمعنى التحدي خلال الخطاب: (إني لأظنك يا موسى مسحوراً)

(إني لأظنك يا فرعون مثبوراً)[2].

وهما جملتا نداء وكان مقتضى القول: (يا موسى إني لأظنك مسحوراً) وكان مقتضى الثانية: (يا فرعون إنّي لأظنك مثبوراً) ولكن مجيء النداء متأخراً عن محله، وتوسطه وكأنّه جملة معترضة، أوحى بمعنى التحدي والندية بين الرجلين، لا سيما وأن كل واحد منها قد خاطب الآخر باسمه، دون ألقاب، في جرأة واضحة لإيمان كل واحد منهما بعقيدته!! وهذا من أجمل الأساليب الواردة في سورة الإسراء!!

وبعد: فهذا عرض لأهم الأغراض البلاغية التي استطعت تبيّنها خلال دراستي لهذه السورة، ولا يعني ذلك أنّه ليس هناك أغراض أخرى فاتتني أو لم أستطع تبيّنها، ولكن القرآن بحر لا شواطئ له، وعالم لا يحيط به محيط، وحسبي أنّي أدليت بدلوي، وبذلت قصارى جهدي، علّني أكون مشمولاً بمن قال فيهم النبي -ﷺ-: "لا أقول ألم حرف، بل ألف حرف، ولام حرف وميم حرف" في معرض حديثه عن أجر القارئ.

---

[1] الإسراء، (101-102).

[2] ابن منظور، لسان العرب، مادة (ثبر) والثبور: هي العقوبة أي مغلوباً ممنوعاً من الخير، والمثبور الملعون المطرود المعذب ومثبوراً هالكاً أي أظنك يا فرعون معذباً ومعاقباً بعد الموت.

الخاتمة

تبين للباحث بعد القيام بهذه الدراسة حول ظاهرة التقديم والتأخير في سورة (الإسراء)، وبعد استقراء حول هذه الظاهرة في دراسات القدامى والمحدثين من البلاغيين والنحويين والنقاد ما هو آت:

1- لا تقتصر أهمية التقديم والتأخير في القرآن الكريم عامة وفي (الإسراء) خاصة على الغايات الجمالية أو النحوية وإنّما تأتي في المقام الأول لغايات بلاغية عظيمة ترمي إلى إيصال المعاني والتوجيهات الأخلاقية للناس. ففي قوله تعالى: (ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق) (ولا تجعل مع الله إلها آخر) (ولا تمش في الأرض مرحاً) (ولا تبذروا تبذيراً) إنما تقدمت صيغة النهي على غيرها في الآيات للتأكيد على الحرمة المغلّظة لهذه الأفعال وليس رعاية للإيقاع والوزن داخل الآيات.

2- تأتي فواصل الآيات الكريمة في القرآن الكريم عامة وفي الإسراء خاصة عفْوية منسجمة تمام الانسجام مع معنى الآية دون أن تجور على معناها أو تجر جراً لتحقيق السجع والموسيقى فالله سبحانه هو الأقدر على التصرف في الكلمات ونظمها قال تعالى: (قُل لَّوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا) وبذا يرفض الباحث قول الدارسين القدامى والمحدثين إن التقديم والتأخير قد يقع رعاية للفواصل كما ذهب الزركشي في (البرهان) والأندلسي في (البحر المحيط) وابن هشام في (مغني اللبيب) ويعده عظيماً في حق القرآن الكريم.

3- ذكر الدارسون القدامى مجموعة من الأغراض البلاغية العظيمة التي تكمن وراء ظاهرة التقديم والتأخير كالتقديم للأهمية والاختصاص والسببية والتعظيم والمدح

والتحقير ومراعاة الرتبة وغيرها، حتى بلغت (25) غرضاً على يد الزركشي ت(772هـ) في كتابه (البرهان في علوم القرآن) وبذا استوت على يديه باباً كاملاً من أبواب علم المعاني وذلك في القرن الثامن الهجري.

4ـ كان للجرجاني دورٌ كبيرٌ في تأصيل هذا الباب من أبواب علم المعاني حيث نقله من الحيز الضيق –معرفة الصواب والخطأ من الناحية النحوية– إلى الحيز الأكبر وهو معرفة (الرتبة البلاغية) وتحليل الغاية الكامنة وراء هذه الظاهرة كما رفض اقتصار السابقين عليه القول بأنّ غاية التقديم والتأخير في الشواهد إنّما هي للاهتمام للمتقدم دون توضيح لوجه هذا الاهتمام واختصاصه الدقيق.

5ـ بعد تجوال سريع في القرآن الكريم وقبل الولوج إلى سورة الإسراء عرض الباحث لمواطن جميلة ظهر فيها التقديم والتأخير جلياً في آيات متعددة وسور مختلفة من القرآن الكريم. فأوردها موضحاً مواضع هذا التقديم ووجه (الجمالية) فيه، مستعيناً بآراء الدارسين القدامى والمحدثين من مثل الزمخشري، وابن القيم الجوزية والزملكاني ومن المحدثين فاضل السامرائي وسامح الرواشدة وخديجة السايح، وغيرها فظهرت خلال هذه المواطن معظم الأغراض البلاغية التي أشار إليها الدارسون، كالتخصيص للأفضلية في قوله تعالى: (وأمددناكم بأموال وبنين) فقد تقدم ذكر المال على البنين للأفضلية، والتقديم للتعظيم كقوله تعالى: (الله نور السماوات والأرض) والتقديم للاختصاص كقوله تعالى (إياك نعبد وإياك نستعين) والتقديم للشرف كقوله تعالى (الحر بالحر والعبد بالعبد) وغيرها.

فكان هذا الباب معيناً على الباب الذي يليه وهو سورة الإسراء حيث أمكن معالجة الظاهرة البلاغية فيه بالإفادة مما سبق.

6ـ شرع الباحث بعد ذلك في دراسة سورة الإسراء باحثاً عن مواضع هذه الظاهرة فخرج بعدة نتائج هي:

أـ غلبة نسق الجار والمجرور على غيره من الأنساق اللغوية في احتواء هذه الظاهرة البلاغية حيث قاربت هذه الأنساق (70) موضعاً ضمّت معظم الأغراض البلاغية التي ذكرها البلاغيون القدامى وهي:

التقديم للأفضلية ـ الاهتمام ـ التعظيم ـ الرعاية والتفضيل ـ التحذير ـ التحقير ـ التوعد والتهديد ـ التحدي ـ السبق الزماني ـ الترتيب والترقي ـ التدرج في وصف حركات الإنسان ـ القسم والتأكيد ـ القصر ـ المدح والإطراء.

ب ـ ظهر التقديم والتأخير في نسق الجمل الفعلية والاسمية بصورة أقل من نسق الجار والمجرور ولكنه احتوى كذلك على معظم الغايات البلاغية التي ذكرها الدارسون كالتدرج والسببية والتحذير والتفضل والاهتمام وغيرها.

ج ـ غلب على سورة الإسراء كغيرها من سور القرآن تقديم المعاني التي توحي بالإيجابية التي يتميز بها دين الرحمة الإسلام، فالرحمة تتقدم على العذاب، والبشارة تتقدم على الإنذار، والله سبحانه يتقدم ذكره على غيره في مجال الاختصاص والحوار يتقدم على الوعيد إلّا في مواضع تتطلب غير ذلك . رحمة بالناس ورعاية لأحوالهم.

د ـ كان للسورة الكريمة (الإسراء) خصوصية امتازت بها عن غيرها في مجال التقديم والتأخير كظهور منهج متكامل من التوجيهات الأخلاقية والاجتماعية جاءت متلاحقة متسلسلة مبدوءة بصيغة (لا تفعل) فتشكلت منظومة رائعة لإصلاح أحوال البشر. وكان التقديم والتأخير فيها ماثلين بصورة جلية أشار إليها الباحث في موضعها من مثل:

قال تعالى: (ولا تجعل مع الله إلها أخر)

قال تعالى: (وآت ذا القربى حقه)

قال تعالى: (ولا تبذر تبذيراً)

قال تعالى: (ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك)

قال تعالى: (ولا تقتلوا أولادكم)

قال تعالى: (ولا تقربوا الزنى)

ولو التزم بها الناس على مختلف معتقداتهم لسعدت البشرية وهدأ حالها.

هـ ـ ظهر في السورة غرض لطيف لم يشر إليه الباحثون القدامى ـ وقد توصل إليه الباحث ـ وهو (النِّدِّية) في حوار لطيف بين فرعون وموسى وذلك في قوله تعالى: (إني لأظنك يا موسى مسحورا) (إني لأظنك يا فرعون مثبورا) فتقدم جملة المنادى (يا موسى) (يا فرعون) على الخبر معناها التحدّي. الثاني ل (ظن) يظهر معنى التحدّي حيث تقدمت على المفعول الثاني لـ (ظن) والنّدّية بصورة لطيفة!!

و ـ لم تكد تخلو آية من آيات سورة الإسراء من ظاهرة التقديم والتأخير حاول الباحث جاهداً تبين ـ غالبيتها ـ فالأمر ليس بالهيّن لتشابك علمي النحو والبلاغة في دراسة هذه الظاهرة.

ي ـ يدعو الباحث إلى عدم البت والقطع في تحديد الغرض البلاغي لهذه الظاهرة في آية من الآيات؛ لأنّ الأمر في نهاية المطاف محض اجتهاد وتأمل ويبقى المعنى الحقيقي للآية عند الله سبحانه وما أوتينا من العلم إلا قليلا.

وآخر دعوانا أن الحمدلله ربّ العالمين

الباحث

المصادر والمراجع

القرآن الكريم

ابن الأثير، أبو الفتح ضياء نصر الله بن محمد بن محمد بن عبد الكريم، 1358هـ-1939م، **المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر**، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، مصر، (د.ط).

الألباني، محمد ناصر الدين، **الجامع الصغير**،(د.ت)، (د.ط).

الآلوسي، شهاب الدين السيد محمود البغدادي، **روح المعاني تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني**، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، (د.ط)، (د.ت).

الآمدي، أبو القاسم الحسن بن بشر بن يحيى المصري، **الموازنة بين الطائيين** (أبو تمام والبحتري)، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، (د.ت)، (د.ت).

الأندلسي، أبو حيان محمد بن يوسف،1422هـ، 2001م، **البحر المحيط**، تحقيق: عادل أحمد عبد الموجود، وعلي محمد معوض، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1.

الأنصاري، ابن هشام أبو محمد عبدالله جمال الدين بن يوسف ابن أحمد عبدالله المصري، **مغني اللبيب**، حققه: محمد محيي الدين عبد الحميد، (د.ط)، (د.ت).

الباقلاني، أبو بكر محمد بن الطيب،1963م، **إعجاز القرآن**، تحقيق: السيد أحمد الصقر، دار المعارف، مصر، (د.ط).

الباقلاني، أبو بكرمحمد بن الطيب، 1991، **إعجاز القرآن**، تحقيق: محمد عبد المنعم خفاجي، دار الجيل، بيروت، ط1.

البخاري، محمد بن إسماعيل أبو عبدالله،1422هـ، **صحيح البخاري**، تحقيق: محمد زهير بن ناصر الناصر، دار طوق النجاة، ط1.

البيضاوي، ناصر الدين أبي الخير عبدالله بن عمر بن محمد الشيرازي الشافعي، 1418هـ- 1998م، **تفسير البيضاوي. أنوار التنزيل وأسرار التأويل**، إعداد محمد عبد الرحمن المرعشلي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، ط1.

التويجيري، شرف الدين، جعفر، 1420هـ، 1999م، **الموسوعة القرآنية خصائص السور**، مراجعة: أحمد حاطوم، محمد توفيق أبو علي، دار التقريب، بيروت، لبنان، ط1.

الجرجاني، عبد القاهر، 2007م، **دلائل الإعجاز**، تحقيق: محمد رضوان الداية، دار الفكر، دمشق، ط1.

ابن جنّي، أبو الفتح عثمان، 1407هـ، 1987م، **الخصائص**، تحقيق محمد علي النجار، الهيئة المصرية العامة، ط3.

الجوزية، ابن القيم، الإمام أبو عبدالله محمد بن أبي بكر بن أيوب،1427هـ، **بدائع الفوائد**، تحقيق: علي بن محمد العمران، إشراف بكر بن عبدالله أبو زيد، دار علم الفوائد، ط2.

الحاكم، أبو عبدالله بن عبدالله بن محمد حمدوية النيسابوري، 1411هـ، 1990م، **المستدرك على الصحيحين**، تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، ط1.

الخفاجي، ابن سنان الأمير أبو محمد عبدالله بن محمد بن سعيد، **سر الفصاحة**، دار الكتب العلمية، بيروت– لبنان، ط1، (د.ت).

الرازي، محمد الرازي فخر الدين العلامة ضياء الدين عمر، تفسير الفخر الرازي ،1410هـ– 1990، **المشتهر بالتفسير الكبير ومفاتيح الغيب**، المشتهر بخطيب الريّ، دار الفكر، بيروت، لبنان، (د.ط).

الرواشدة، سامح عبد العزيز، 2013م، **جماليات التعبير في القرآن الكريم**، دار صايل للنشر والتوزيع، ط1.

الزجاجي، أبو القاسم عبد الرحمن بن إسحاق البغدادي النهاوندي، 1987م، **الأمالي**، تحقيق: عبد السلام هارون، دار الجبل، بيروت، ط2.

الزركشي، بدر الدين محمد بن عبدالله، **البرهان في علوم القرآن**، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعرفة، بيروت، لبنان، ط2، (د.ت).

الزمخشري، الإمام محمود بن عمر، 1406هـ– 1986م ، **الكشّاف**، تحقيق: مصطفى حسين أحمد، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، (د.ط).

أبو زيد، نايل ممدوح، 2013م **دراسات في إعجاز القرآن**، مطبعة الأزهر، مؤتة، ط2.

السامرائي فاضل صالح، 1434هـ، 2012م، **التعبير القرآني**، دار عمار، عمان-الأردن، ط8.

السايح، خديجة،2000م، **مناهج البحث البلاغي**، منشأة المعارف، الأسكندرية، ط1.

السعدي، عبد الرحمن ناصر،1430هـ، 2009م، **تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنّان**، قدم له فضيلة الشيخ محمد بن صالح العثيمين، مكتبة فياض، ط1.

أبو سعود، محمد بن محمد بن مصطفى العمادي الحنفي، 1419هـ-1999م، **تفسير أبي السعود أو إرشاد العقل السليم**، تحقيق عبد اللطيف عبد الرحمن، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1.

السكاكي، أبو يعقوب أكرم عثمان، 1981، **مفتاح العلوم**، مطبعة دار الرسالة، بغداد، ط1.

سلطان، فاضل ضايف، 1428هـ- 2007م، **سورة الإسراء، دراسة بلاغية دلالية**، رسالة ماجستير، جامعة الكوفة، كلية الآداب، قسم اللغة العربية.

سيبويه، أبو بشر عمرو بن قنبر، 1988م، **الكتاب**، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط3.

السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن، 1407هـ-1988م، **الإتقان في علوم القرآن**، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، (د.ط).

السيوطي، أبو الفضل جلال الدين عبد الرحمن أبي بكر)، 1408هـ- 1988، **معترك الأقران في إعجاز القرآن**، تحقيق: أحمد شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1.

الشيرازي، ناصر مكارم، 1426هـ، 2005م، **الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل**، الأمير للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ط1.

الصابوني، محمد علي،1414هـ، 1993م، **صفوة التفاسير**، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، (د.ط).

صافي، محمود، **الجدل في إعراب القرآن وصرفه وبيانه**، مؤسسة الإيمان، بيروت، لبنان، (د.ط).

ابن الصمة، دريد، **الديوان**، تحقيق: عمر عبد الرسول، دار المعارف، القاهرة، (د.ط)، (د.ت).

ضيف، شوقى، **البحث الأدبي**، دار المعارف، القاهرة، ط7، (د.ت).

طبل، حسن،1425هـ- 2004م، **علم المعاني** في الموروث البلاغي، مكتبة الإيمان، جامعة الأزهر، ط2.

عباس، فضل حسن،1408 هـ، 1988م، **قضايا قرآنية في الموسوعة البريطانية**، دار البشير، عمّان، ط1.

العسكري، أبو هلال الحسن بن عبدالله بن سهل،1401هـ- 1981م، **كتاب الصناعتين**، تحقيق: مفيد قميحة، دار الكتب العلمية، بيروت- لبنان، ط1.

العلوي، يحيى بن حمزة بن علي بن إبراهيم، 1400هـ، 1980، **الطراز**، مكتبة المعارف، الرياض، بيروت- لبنان، (د.ط).

العنبكي، علي عبدالله،2011، **البناء اللغوي في الفواصل القرآنية**، دار صفاء للنشر، ط1.

غنام، محمد فوّاز،1993م، **أسلوب التقديم والتأخير في القرآن الكريم على رأي عبد القاهر الجرجاني**، رسالة ماجستير (مخطوط) الجامعة الأردنية، كلية الدراسات العليا، ، ص.

الفراء، أبو زكريا يحيى بن زياد،)، 1972، **معاني القرآن**، تحقيق: عبد الفتاح إسماعيل شلبي، مراجعة علي النجدي ناصف، الهيئة المصرية العامة للكتاب، (د.ط).

أبو القاسم، علي، 2006، **بلاغة التقديم والتأخير في القرآن الكريم**، دار المدار الإسلامي، بيروت، لبنان، ط1م.

ابن قتيبة، أبو محمد عبدالله بن مسلم الكوفي، 2001م، **أدب الكاتب**، تحقيق: محمد الفاضلي، دار الجيل، بيروت، (د.ط).

قدامة بن جعفر، أبو الفرج، **نقد الشعر**، تحقيق: كمال مصطفى، ط3، (د.ت).

القرطبي، أبو عبدالله محمد بن أحمد الانصاري، 1423هـ، 2003، **الجامع لأحكام القرآن**، تحقيق: الشيخ هشام سمير البخاري، دار عالم الكتب، الرياض، (د.ط).

قطب، سيد، 1391هـ-1971م، **ظلال القرآن**، بيروت، لبنان، ط7 .

القيرواني، ابن رشيق أبو علي الحسن، 1408هـ، 1988، **العمدة**، تحقيق: محمد قرقزان، دار المعرفة، بيروت، لبنان، ط1.

المبرد، أبو العباس محمد بن يزيد، 1399هـ، 1979م، تحقيق: محمد عبد الخالق عضيمة، **المقتضب**، عالم الكتب، بيروت،ط2.

ابن المدبر،1350هـ، 1931م، **الرسالة العذراء**، تحقيق: زكي مبارك، دار الكتب المصرية، القاهرة، ط1.

المرزباني، أبو عبيدالله محمد بن عمران بن موسى، 1965، **الموشح في مآخذ العلماء على الشعراء**، تحقيق: علي محمد البجاوي، مطبعة لجنة البيان العربي، (د.ط).

المسيري، منير محمود،1426هـ، 2005م، **دلالات التقديم والتأخير في القرآن الكريم**، مكتبة وهبة، ط1.

المصري، ابن أبي الإصبع، **بديع القرآن**، تحقيق: حفني شرف، ط1، مكتبة نهضة مصر.

المصري، ابن أبي الإصبع، **تحرير التحبير**، تحقيق: حفني شرف، نشر لجنة إحياء التراث الإسلامي، القاهرة.

المعري، أبو العلاء، 1411هـ-1991م، **شرح ديوان حماسة أبي تمام المنسوب لأبي العلاء المعري**، تحقيق: حسين محمد نقشة، دار الغرب الإسلامي، بيروت لبنان، (د.ط).

المنذري، عبد العظيم، ابن عبد القوي ابن عبدالله، أبو محمد، زكي الدين المصري، **(656هـ) صحيح الترغيب والترهيب**، صححه الألباني، (د.ط)، (د.ت).

ابن منظور، أبو الفضل جمال الدين، محمد بن مكرم، **لسان العرب**، دار صادر، بيروت، (د.ط)، (د.ت).

النحاس، أبو جعفر أحمد بن محمد بن إسماعيل،1409هـ، 1988م، **إعراب القرآن**، تحقيق: زهير غازي زاهد، عالم الكتب، مكتبة النهضة العربية، بيروت، ط3.

النيسابوري، مسلم بن الحجاج أبو الحسن القشيري، **المسند الصحيح المختصر**، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، (د.ط)، (د.ت).

الهاشمي، السيد أحمد، **جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع**، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، ط12، (د.ت).

المعلومات الشخصية

الاسم: إحسان عبدالله محمد الجبوري

الكلية: الآداب

الدرجة العلمية: ماجستير

التخصص: اللغة العربية

السنة:2015